الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

Abul Azayem
www.abulazayem.com

Version 3 / April, 2024

الصوفية والتصوف

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

من هم الصوفية

معنى كلمة صوفية

إن هذا اللفظ لا دليل لغوياً يدل على أنه مشتق من الاستصفاء، ولا من الاصطفاء، ولا من الصف، ولا من الصُفة نسبة لأهل الصُفة، ولا من الصوف، والظاهر أن مدلوله فعل ماض مبنى للمجهول خبراً عن صفاء قلب من سُمى به.

أئمة الصوفية

والصوفية إمامهم الأول بعد أمير المؤمنين علىٍّ كرم الله وجهه سيدنا أبو ذر الغفارى وسيدنا سلمان الفارسى رضى الله عنهما.

تعدد مناهج الأخلاق عند الصوفية

أولاً **الصوفى قدم دار البقاء على دار الفناء وباع ما يزول بما يدوم**

معلوم أن الأشياء كلها لها ظاهر وباطن وهو لُبُها، فكذلك الدنيا والآخرة، وللدنيا أبناء وللآخرة أبناء، فأبناء الدنيا شغلوا بما تقتضيه حظوظهم وشهواتهم وأهوائهم، وما يدعوهم إليه الحس والجسم، فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ الرعد ٢٦، فاستخدموا جوهر النفس النورانى ونور العقل الروحانى لتحصيل كماليات الجسد الفانى، جهلاً بالآخرة أو تجاهلاً.

والصوفى عرف قدر الدنيا بالتعليم، وتحقق زوالها بالتفكير، وأيقن أن بعدها داراً هى الدار حقاً، لا يسعد فيها إلا من تخلى عن دنس الأجسام وخبث الشياطين ودناءة البهائم وبلادة النباتات وثقل الجمادات، حتى يتشبه بعالم الملكوت الأعلى.

الصوفى علم قدر الدنيا والآخرة، فقدم ما يبقى على ما يفنى، وباع ما يزول بما يدوم.

ثانياً الصوفى من جاهد نفسه وانسلخ من مقتضيات نقائصه

الصوفى رأى فى نفسه عوائق تعوقه عن بلوغ كماله الحقيقى، تلك العوائق راسخة فى فطرته، راسية فى حقيقته، جواذبها إلى الراذائل قوية، ودوافعها عن نيل الخير شديدة، ومقتضياتها التى توبق فى الدرك الأسفل من النار ملازمة، ولكنه سطعت على جوهر نفسه أنوار تلك الكمالات من جانب الروح، وناداه الحق من قبله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ طه ١٢، خلقتك لذاتى وخلقت لك كل شئ، ومنحتك الحرية والإرادة، وبينت لك الشر، وأعددت لك النظر إلى وجهى فى دار كرامتى، وجوار الأطهار المقربين ممن اصطفيتهم من خلقى، فسمع ولبى وحن واشتاق، ثم دعته فطرته الحيوانية فى دار البلية فنظر وفكر وتأمل وتدبر، فرأى الدنيا قد آذنته بزوالها، وأشهدته عملها فى أبنائها، فرآهم بين راحل إلى القبور وبين غافل عن الآخرة مغرور، فجاهد نفسه فى الله حتى أطاعته، وانسلخ من مقتضيات نقائصه كما ينسلخ الليل من النهار.

ثالثاً الصوفى غريب بين أهله

الصوفى صغرت والله الدنيا فى عينه حتى كره المقام فيها بين أهله، لولا رحمته ببنى جنسه ليدعوهم إلى الخير، واستوحش والله حتى من نفْسه، وتمنى أن يكون نَفَسه الثانى فى رمسه، شوقاً إلى جوار حبيبه المختار، والأنس بالصفوة الأطهار ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر ٥٥، رجع بكليته إلى الماضى، مسارعاً إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من العقيدة والعبادة، والحال النبوية، والأخلاق الربانية، ومعاملتهم الله تعالى فى خلقه، ورجع إلى الماضى من السنة السمحاء والطريقة المستقيمة، فكان غريباً بين أهله لجهلهم بالسنة وتساهلهم بالملة، ولو ظهر بينهم رجل من الصحابة لأنكروا حاله وجهلوا أعماله، ولكن الصوفى قوى فى دين الله، ولا تأخذه لومة لائم فى الله، شهد الحق حقاً فاتبعه مسارعاً، والباطل باطلاً فاجتنبه فازعاً.

رابعاً الصوفى اتحد بالحق مفارقاً للخلق وهو فيهم

الصوفى عمل بكتاب الله مجاهداً، وسنة رسول الله ﷺ مشاهداً، فسبحت نفسه الطاهرة

فى ملكوت الله، بين صفوف ملائكة الله فرفعه الله قدراً، لأن الصوفى مجاهد والملائكة غير مجاهدين، ينازع بالمجاهدة فطرته، والملائكة على الخير مفطورين، قال الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء ٩٥، لم تقف همة الصوفى على السياحة فى ملكوت الله الأعلى بل فرَّت إلى لوامع وميض أنوار قدس العزة والجبروت، فألهت إلى الإشراف على القدس الأعلى، فجذبتها العناية الأزلية، واختطفتها يد الحسنى بالسابقية، فأشرف على قدس العزة والجبروت، فأشرقت عليه أنوار مشاهد التوحيد العلية، فاتحد بالحق مفارقاً للخلق، وهو فى الخلق محفوظ الظاهر والباطن، فألهمه الله تعالى نور البيان فى فهم القرآن، ومنحه المنَّة بذوق السُّنَّة، فكان أمة وحده، جعل الله له نوراً منه سبحانه حفظه به من دواعى الفطر، ولوازم الطبع، ومقتضيات رتبته من مراتب الوجود، وجعله نوراً لأهل عصره، يجمل بأعماله الأشباح، وبعلومه الأرواح، ويجذب القلوب إلى علام الغيوب، ألقى الله عليه محبة منه فأحبه كل شئ، إلا شياطين الإنس والجن، الذين جعلهم الله قُطاعاً لطريقه.

مدارس الصوفية لا خلاف بينها فى كل زمان ومكان

الصوفية لا خلاف بينهم فى كل زمان ومكان، وبدايتهم تزكية النفوس وأدرانها، وتطهير الأجسام من نجاستها المعنوية، والاتصال بالمرشد الكامل الذى يتلقون عنه العقيدة الحقة، ويتشبهون به فى الأعمال السنية، والأخلاق المرضية، والمعاملات المقربة إلى الله تعالى، لأن المرشد وارث رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يورث درهماً ولا ديناراً، ولا أطياناً وعقاراً، ولكنه ﷺ ورَّث نوراً وهدى، وحكمة وبياناً، قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ١٥١.

فهذه الخيرات هى ميراث سيدنا رسول الله ﷺ التى ورَثها الله بفضله من شاء من عباده.

الصوفية هم أنصار الله ورسوله ﷺ فى كل زمان ومكان

سترهم الله عن أعين الجهلاء، وأخفاهم عن أهل الظلم والطغيان، ولكنهم هم النجدة عند الشدة والقوة عند الضعف والحصون عند الخوف.

ذلوا ولانوا وخشعوا واختفوا وتستروا، نعم. ولكنهم إذا غضبوا لله غضب الله لهم، وإذا دعاهم الحق لَبوه، رخيصة دماؤهم عليهم حنيناً إلى الموت فى سبيله، والقتل فى إعلاء كلمته، متى تحركوا لله لا يسكنوا حتى يظهر الحق، أو يتصلوا بدار الحق، كم لهم من صولة لله بالله أزالوا بها باطلاً تعسر زواله على الجيوش الجرارة، فهم الأنوار التى تسطع فى حالك الظلمات فتمحوها، وقد أثبت التاريخ ما أظهره الله تعالى بهم، منهم آل بدر أنصار الله المهاجرون، استضعفوا فى أوطانهم ففروا إلى الله تعالى، والفقراء من الأنصار الذين خرجوا ليقابلوا تجاراً من الشام فقابلوا صناديد العرب وجمراتها، فكان كل رجل منهم كأنه جيش جرار.

غضبوا لله تعالى غضبة محت الكفر وأهله، وفى كل عصر وزمان قام فيه أهل الطغيان ليطفئوا نور الله بأفواههم، أشرقت أنوار الصوفية فمحت الظلمات، هم الذين نشروا تلك الأنوار فى سائر الأقطار بالقرآن والسنان، شوقاً إلى لقاء ربهم وحُباً فى إعلاء كلمة الحق.

أهل الصُفة هم مصدر بث الروح العالية فى كل الحوادث

أقبل جيش الروم عندما قام الصحابة لفتح القسطنطينية، وكانوا رضى الله عنهم قليلين، وجيش الروم يناهز الستمائة ألف مقاتل، فهجم رجل من التابعين على قلب الجيش منفرداً، فناداه آخر قائلاً: ارجع فإن الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ البقرة ١٩٥.

فصاح سيدنا أبو أيوب الأنصارى ـ من كبار الصوفية ـ قائلاً: ويحك، لقد نزلت فينا، وأنا أعلم سبب نزولها، ليست التهلكة الإقدام على هذا الجيش، وإنما التهلكة الإحجام، فإن المؤمن إذا أقبل فاستشهد أحياه الله الحياة الحقة، وإذا أحجم هلك، ثم كبر رضي الله عنه وهجم على الجيش كله منفرداً فاخترق صفوفه، وأقبل المسلمون بعزيمة ماضية وراءه، فهزم الله جيش الروم وكادت تفتح القسطنطينية، لولا موت أمير المؤمنين معاوية ورجوع أمير الجيش وقواده لهذا الحادث العظيم، فكان الصوفى فى وقت الغيرة لله، يجعل من معه مُشاهداً فردوس الله، وليس بينه وبينها إلا أن يطعن بسنان أو يضرب بسيف، فهم رضى الله عنهم زهدوا فى الدنيا، ورغبوا فى الآخرة، ولكنهم عند المقتضيات يقومون لله، رغبة لإعلاء كلمته سبحانه، وهم الذين إذا أقدموا لم يحجموا، يعملون ولا يقولون، كثرت أعمالهم وقلت أقوالهم، خافوا مقام ربهم ونهوا النفس عن الهوى، ولهم جانب مع الله تعالى إذا سألوه استجاب لهم، ولهم

أعمال خالصة لذات الله تعالى إذا قاموا بها كان الله معهم ولهم.

الصوفية حملوا راية الإسلام إلى كل مكان بالمعرفة والسلوك

لم تقم دولة الإسلام إلا وهم مُؤسسوها، ولم تقم فتنة من أعداء المسلمين إلا وهم مُطفئوها. أول الخلفاء بعد رسول الله ﷺ إمامهم، ودام الأمر فيهم إلى سيدنا الحسن السبط عليه السلام ومدتهم عمر الخلافة، حتى انتقلت إلى المُلك العضد، وهم الذين قلبوا دولة بنى أمية، وأعادوا الدولة لبنى هاشم، وهم الذين أيدوا دولة آل عثمان، حتى شيدت المساجد فى بودابست وفى بولونيا، ولم يبق إلا أن تصير أوروبا إسلامية كما كان أولاً.

التفت الصوفية إلى خلوتهم وتجريدهم، عندما رأوا أنه لا حاجة لهم لقوة سلطان المسلمين، وهم الذين ردوا الصليبين عن الثغور الإسلامية فى زمان صلاح الدين الأيوبى، عندما غاروا لله غيرة سلبت عقول الإفرنجة، حتى أصبح الحليم سفيهاً ولا غرابة، فإن درويشاً لم يبلغ خدمة المرشدين، غار لله هو ودراويشه غيرة قهرت ملك الحبشة وجيوش الطليان، وجنود فرنسا والجيش المصرى والإنجليزى، حتى مات منصوراً ظافراً، وجيشه على أبواب مصر، ولكن غدرته المنية، وقام بالأمر غير الدراويش، فاختلفت القلوب وتغيرت.

الصوفية أيقظوا الشرق من غفلته لكى ينال حريته

أولاً الصوفية هم القائمون بواجب الوقت

الصوفية هم المقبلون بكليتهم على الحق، الملتفتون عن جناب الغرور والفناء إلى اليقين الحق والبقاء، وهم الرجال الذين عرفوا قدر الدنيا والآخرة، وفروا إلى الله تعالى مع حفظ الأدب مع الله تعالى بالوقوف عند الأسباب التى وضعها الحق مرتبطة بعضها ببعض، قال رسول الله ﷺ: (نعمة الدنيا مطية المؤمن). وفيها ينال الإنسان أرقى مراتب السعادة فى الآخرة، وهى مهبط وحى الله ودار رسل الله ومحلة العمل لله والمسارعة فى محابه ومراضيه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٧٢.

علموا مقدار الدنيا وما ينال فيها من الرضوان الأكبر والفضل العظيم وحسن الثناء،

فبذلوا النفس والنفائس فيما لا يُحصل إلا فى الدنيا، فهم رجال العمل للخير الحقيقى، قاموا بواجب الوقت ومقتضاه تلبيةً لداعى الحق شرعاً وقدراً، فهم العاملون وإن ترك الناس، والقائمون إذا أهمل الناس، ولكنهم حكماء حلماء، جملهم الله تعالى بالأناة والحلم وحب الاستخارة والمشورة، حتى يطمئن القلب بإخلاص العمل لله، فإذا حركتهم العناية للقيام بعمل هو خير فى الحقيقة ونفس الأمر أقبلوا بالكلية، محافظين على آداب السنة غيرة لله سبحانه، فلهم فى كل شأن من شئون الدنيا نظر سديد، وبحث بعيون الفكرة والروية حتى يستنبطوا حكم الله فى هذا الشأن، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت ٦٩، وقال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧.

ثانياً اتحاد الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة

وقد آن أن يظهر سر تلك الشئون، وتلوح غيوب تلك الحوادث، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ آل عمران ٢٦.

ومتى أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، وهو سبحانه مُقلب القلوب، له سبحانه وتعالى شئون يبديها ولا يبتديها، يرفع قوماً ويخفض آخرين. تنبه الشرق من غفلته وقام من نومة جهالته بعد الثبات الطويل، فلم يبق قلب إلا وتقلب ولا لسان إلا ونطق ولا جسم إلا وتحرك من غير داع يدعو، ولا آلات وأدوات تشجع، حتى اتحدت الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة على غرض واحد، ، فترى البرهمى والبنيانى والمسلم فى جنوب آسيا ينادون بصوت واحد طلباً لقصد واحد، والرافضى والشيعى والسُنى فى بلاد الفرس يسارعون إلى مطلب واحد، والزيدى والسُنى فى بلاد اليمن يطلبون مطلباً واحداً، والمسلم والقبطى فى مصر يتنافسون فى نيل غرض واحد، بل سرت تلك الروح فجددت نشوة لم تكن منتظرة، وأحيت أشلاء رميمة، فلم يبق سوقة فى حقير المهنة ولا عالم فى رفيع الرتبة، ولا بطريرك فما دونه ولا أمير إلا والكل قد جذبتهم تلك العناية الربانية إلى اليقظة لحقوق لم تكن تخطر على البال، ومطالب لم يتصورها الخيال.

❊ ❊ ❊

ثالثاً واجب رجال التصوف

والصوفية مقبلون بالكلية على الحق، يرون واجبهم المقدس فى مثل تلك الحوادث الابتهال إلى الله تعالى أن يحفظ المجتمع من الفتن المضلة، وأن يدفع عن عبيده وعباده نتائج غضبه، من الهرج والمرج والظلم والتظالم، حتى دعا واجب الوقت أن يكونوا عُمالاً لله تعالى قياماً بمقتضى الوقت، والوقت يوجب علينا أن نحرص كل الحرص على العمل لرد ضالتنا المنشودة، حتى نكون كما خلقنا الله تعالى أحراراً، متنعمين بنعمة الدين والدنيا والآخرة، فإن مسرات النفس بنيل الشرف والمجد فوق مسرات الجسم بنيل الشهوات والملاذ، ومسرات الروح بنيل رضوان الله الأكبر، والقيام له سبحانه وتعالى بما يحب ويرضى، فوق مسرات النفس بالمجد والشرف، ولا سبيل إلى نيل خير الروح والنفس والجسم إلا التمتع بالحرية المطلقة، التى يكون بها الإنسان آمناً على دينه ودنياه وحياته، وإذا عشنا فى تلك الدار الدنيا لا حرية لنا ولا رأى، يضيع الحق بيننا فلا يمكننا أن نقوم به، تلك الحياة ليست حياة إنسانية، بل هى أشبه بحياة أسفل الأنواع، فإن الله جل جلاله خلق الإنسان حُراً مُريداً، وكان قادراً سبحانه أن يقهره بوضع أسباب تحيط به، فكيف يرضى الإنسان لنفسه أن يكون آلة صماء تحت إنسان نظيره، ولابد لكل صوفى، لا أقول فى بلاد مصر بل فى أقطار الأرض، من أن يعلن أنه لا يرضى لأى إنسان مهما كانت درجته ديناً وعلماً أن يرى إنساناً نظيره فوقه إلا بالحق، كما يرى الأبناء آباءهم الرحماء، وكما يرى التلاميذ معلميهم الأتقياء، وكما ترى الأمة ولاة الأمور الأبرار الأخيار، فيكون الحق جل جلاله هو العلى الكبير الحكم العدل، وتكون منزلة الإنسان للإنسان بقدر قيامه للحق بالحق، وقد آن لكل صوفى أن يعلن هذا الإعلان، رغبة فى نيل رضوان الله تعالى وحباً فى الخير.

ولما كانت تلك المهمة وجداناً روحانياً كان القائم الداعى إليها داعياً إلى الحق، كائناً من كان، وإنى أدعو رجال الصوفية الذين هم أصدق قلوباً وأخلص نية، وأسرع إقبالاً على الحق، أن يتوجهوا إلى الله بقلوبهم ليغيث العباد من هذا الفساد، وأن ينبهوا العامة والخاصة إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، ليكون الله تعالى معنا بخفى لطفه وسريع إغاثته وعجائب قدرته، فإنه قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة ١٨٦، وأن يرفعوا أصواتهم بعد الحلم والأناة والاستخارة والمشورة، حتى ينظر الله تعالى إلى

عباده بعين رحمته وحنانه، ويمدهم سبحانه بعطفه وفضله وقوته وإحسانه، ويحسن أن يكون لكبار رجال الصوفية ومشايخ البيوت وحضرة شيخ المشايخ اجتماعات يرفعون فيها الأمر إلى الله تعالى، ويكثرون تلاوة الأدعية المأثورة، وينبهون على الدراويش أن يصوموا أياماً لله ويسهروا ليالى لله، ليتجلى الله سبحانه لعباده بما هو أهله من الكرم والإحسان والعفو والعافية والحفظ والسلامة.

وإنى والحمد لله قد شرح الله صدرى لأن أكون أول من يدعو إلى هذا الخير، وأُلبى من دعانى إليه، والله أسأل أن يجعلنا من عُماله المخلصين، ومن الذين يهمهم هم إخوانهم، وخصوصاً فى هذه الشؤون العظيمة والحوادث الهائلة، حفظنا الله وإخواننا من الفتن والهرج والمرج، ومكن لنا فى الأرض بالحق، إنه مجيب الدعاء.

الصوفية هم رجال الرحمة والقوة

أولاً الصوفية نظروا إلى الدنيا بعين الاحتقار

الصوفية رجال نظروا إلى الدنيا بعين الاحتقار، فلم ينافسوا أهلها، ولكنهم اهتموا بتنبيههم إلى حكمة إيجادهم فيها، وإلى الواجب عليهم ليكونوا سعداء فى الدنيا والآخرة، وأقبلوا بالكلية على تزكية نفوسهم، وتحصيل العلم النافع الموصل إلى نيل الخير الحقيقى.

ثانياً الصوفية أشد الناس تأثراً بالحوادث

وهم مع استغراق أنفسهم فى نيل هذا الخير المنشود للنفوس الطاهرة أشد الناس تأثراً بالحوادث، لما جملهم الله به من الرحمة، فهم يعيبون على الإنسان ـ مهما كان دينه ـ إذا أخذ سيفه وخرج ليلاً يسلب مال غيره، وهو إنما يؤذى فرداً واحداً، فكيف بهم إذا رأوا مجتمعاً سلب الله الرحمة من قلوبهم فأعدوا آلات الفناء، من مقذوفات النيران التى تغوص فى البحار وتطير فى الهواء، وتمر على الأرض مَر السحاب لحصد نبات الله على الأرض، ومحو النوع الإنسانى الذى خلقه الله تعالى بيده وسخر له كل شئ، وإذا رأى الصوفى هذا العمل، وهو الذى يفر من العمران إلى القفار خوفاً من رؤية ظلم الفرد للفرد، كيف يكون حاله إذا رأى مجتمعاً انفلتت حقائقه الإنسانية إلى الحقائق الوحشية الشيطانية والوحش يأكل اللحم فيأكل الإنسان

ليتغذى به، وهذا المجتمع يمزق أجسام المجتمعات بشواظ النيران لينال شهوة بهيمية.

ثالثاً الصوفية رجال الرحمة

الصوفية رجال الرحمة الذين يشفقون على الشجرة أن يقطعوا غصناً منها وهى لا تحس، فإذا رأوا السباع الكاسرة، والوحوش النافرة عدت على الأطفال والرجال العزل فأصلتهم نار حامية، ماذا يكون حالهم! أيهملون فى واجبهم حتى يعم غضب الله البر والبحر! أم يرون النيران تحصد فى إخوانهم ولا يشعرون بآلامهم فيتعرضوا لغضب الله تعالى!، لا... ولكنهم يقومون لله ورسوله رحمة بالمظلومين وبغضاً للظالمين ومسارعة إلى نيل رضوان رب العالمين، فإذا تحركت تلك القلوب كان معها علام الغيوب.

أى قلب يعلم ظلم الإنجليز للمسلمين فى فلسطين ومساعدتهم لليهود، وظلم الإنجليز للهند ومصر وسودانها، وغيرها من البلاد الإسلامية، وظلم فرنسا لتونس والجزائر وغيرها من البلاد الإسلامية، وظلم إيطاليا لطرابلس الغرب وأريتريا والحبشة وغيرها من البلاد الإسلامية، وانتشار ظلم دول أوروبا على الشرق وأهله، أى حيوان حى يدرك تلك الفظائع ولا يرق قلبه؟! ولد الشرق رجالاً أيقظتهم الشدائد وخير الرجال من أيقظتهم الشدائد.

رابعاً واجب الصوفية

تنبيه أهل الظلم بعاقبة الأمر، وموعظة من أعانهم من المسلمين.

الصوفية هم صفوة الله الذين اجتباهم من الأزل

علمت مبدأ الصوفية وقصودهم، وتحقق أيها الأخ، أمدنى الله وإياك بروح منه، أن الصوفية رضى الله عنهم جعل الله لهم نوراً، استبان لهم به حقيقة الدنيا والآخرة، وحقيقة أنفسهم وحكمة إيجاد الإنسان وإمداده وتسخير الكائنات له، فسارعوا إلى ما به نيل ما أعده الله للإنسان فى تلك الدار الدنيا، من بهجة بالعلم والأنس بالشهود والعمل بمحابه ومراضيه سبحانه، وفى الآخرة من جوار أنبيائه الأطهار وأوليائه الأخيار وفى مسرات فردوسه الأعلى، نظروا بعيون قلوبهم إلى أنواع مراتب الوجود، فظهر لهم أن الإنسان وسط ما بين عالم الملك والملكوت، فهو حيوان ملكوتى مُطالب بشكر النعمة للمنعم، مكلف أن

يبحث بما وهبه الله سبحانه من العقل والفكر فى نفسه وفيما أحاط به، ليلحظ بسره أنوار الآيات فى نفسه وفى الآفاق، ليعبد الله بجسمه وبروحه.

الصوفية هم صفوة الله تعالى الذين اجتباهم الله من الأزل فوفقهم وأعانهم، وشرح لمحابه ومراضيه صدورهم، لأن بدايتهم المجاهدة فى الطلب، فلو أنك ذُقت حلاوة سر تلك المجاهدة علمت مقدار عناية الله بهم، لأنهم لأى شئ يجاهدون؟ ومن يجاهدون؟ وفيمن يجاهدون؟

أهل الصفا فروا من الأكوان ... للمنعم الوهاب والرحمن
لله قد فروا بصدق عزيمة ... من عالم الملكوت بل وجنان
لم يلههم كون الفساد لأنهم ... قد سارعوا للروح والريحان
أنس الرجال بربهم وبحبه ... فازوا بنيل وصاله الربانى
أهل الصفا شهدوا الجميل بلا خفا ... هاموا به فى حظوة الرضوان
قد لاح وجه حبيبهم لقلوبهم ... نالوا الصفا بالفضل والإحسان
أهل الصفا شهدوا الجمال عيانا ... فقهوا العلوم ورتلوا قرآنا
فروا من الأكوان فى الرضا ... شهدوا جمال الله لاح بيانا
أولاهمو الرحمن فقه كتابه ... أعطاهموا الإقبال والإيمانا
لم يلههم كون الفساد لأنهم ... نالوا رضاء الله منه حنانا
أرواحهم شهدت جميلاً ظاهراً ... والقلب عمر بالتقى إحسانا

الباب الثانى

فى علوم الصوفية وأحوالهم

علوم الصوفية وأحوالهم

تعريف علم التصوف

التصوف عطر للنفس يزكيها وشعاع للروح يلطفها، ونفحات للحس يرهفه ووميضات للعقل يضيئه ويهديه، وهو الغذاء الروحى لكل نفس، والقبس الإلهى المضئ لكل قلب، والخصيصة الإنسانية التى استجابت لآدم وتاب من معصيته فتاب الله عليه.

جاءت رسالات الله إلى الخلق بمنهاجه، وانجلت عمايات النفوس بنوره ورسمت المثل العليا بنبضات أنفاسه وخطوات رجاله.

والتصوف عطر النَفْس الزكية، وشعاع الروح العلوى يشرق على الحس فيزكيه وعلى العقل فيضيئه وإلى الشهوة فيهدئها، هو الروح للنفس والقبس الإلهى للقلب والخصيصة التى يمتاز بها الإنسان عن بقية العوالم، وما أسعد الإنسانية إذا أشرقت الأرض بنور ربها، وتنسمت النفس عبير طيب التصوف العبق، وشربت من راح المعرفة الإلهية الطهور.

والتصوف علم إذا سلكت طريقه أماتك الحق عنك وأحياك به، وهو ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع.

والصوفى دائم التصفية، يصفى الأوقات من شوب الأكدار بتصفية القلب من شوب النَفْس، والصوفى مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نَفْس، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ المائدة ٨، وهذه القوامة لله على النَفْس هى التحقق بالتعرف.

هو العلم بالمعلوم يزكى غراميا ... ويجلى لروحى الوجه جهراً أماميا

هو العلم قصد وهو ثم وسيلتى ... لنيل الرضا حتى أنال مراميا

ولم أتعلم كى أنال وجاهة ... تزول وتبقى عارها وعذابيا

هو العلم يجذبنى إلى الله خالقى ... هو العلم للحق اليقين دعانيا

به رفعتى أرقى عن العلم حاضراً ... فناء عن الأغيار نلت المراضيا
أشاهد معلومى بعلمى عاملاً ... به فانياً عنى شهدت المعانيا
فلم يحجبني العلم عن سر طلبتى ... لأن جمال الحق قد صار باديا
هو العلم قربنى لربى خشية ... فصرت به بالله لله داعيا
لروحى معلومى تراءى فصح لى ... فنائى عنى صار لى العلم هاديا
هو العلم يجلى لى معانى قدسه ... بغير مساس النار أسقى مداميا
يعلمني الرحمن معنى كلامه ... فأفقهه وقد منحت الأياديا
هو العلم جذاب القلوب إلى الهدى ... عليك به تعطى الرضا والمعاليا
ففى كل ذرات الوجود عوارف ... تدل على الغيب الذى كان خافيا
تسبح ذرات الوجود بحمده ... وبالعلم تسمعها إذا كنت تاليا
هو العلم حصن الأمن نور به الصفا ... به تشهد الإحسان فضلاً موالياً
هو العلم علم الله يعطيه من يشا ... يحيط به من شاء يعطى المراضيا
ولولاه لم تزكو نفوس ولم تنل ... رضا الله فى الأخرى نرى الله واليا
وليس بكسب أو عناء وإنما ... ننال بفضل الله جل موافيا
هو العلم نور الله يعطى بفضله ... تعرض له تعطى المنى والأمانيا

* * *

الطريقة والشريعة

سبق لى فى غير هذا الموضوع أنى بينت أن مدلول شريعة وطريقة ومنهاج وصراط وسبيل واحد، وكلها ألفاظ مترادفة دالة على المسافة التى يلزم أن يتجاوزها العبد من الدنيا إلى الآخرة، ومن الآخرة إلى المكون سبحانه وتعالى، وهى المسافة التى لا نجاة للعبد إلا بتجاوزها على الصراط المستقيم.

وتلك المسافة شاسعة طويلة الشقة صعبة المشقة، إلا على من يسر الله لهم السلوك وسهل عليهم مراحلها، وأنعم عليهم بالمرشد الكامل الذى يبين لهم سبل الله، ويوضح لهم حكم أحكام الله ويشرح لهم خفى أيام الله، ويشهدهم فى أنفسهم وفى الآفاق آيات الله، ويعالج أمراض نفوسهم وأسقام قلوبهم بما أمر الله به من قوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ النحل ١٢٥.

فالحكمة لأهل الاستعداد الذين سبقت لهم الحسنى، وحصلت منهم الرغبة فى الحق والشوق إلى ما عنده سبحانه، وهى بيان أسراره وكشف غوامض آياته وشرح مكنون حكمه سبحانه وتعالى.

والموعظة للمؤهل الذى سبقت له الحسنى، ولكنه ملتفت ببصره إلى غير من يجب أن يواجهه، والموعظة هى التنبيه إلى ما يجب على العبد وهى الذكرى، لأن من شهد شيئاً وتصوره والتفت عنه يتذكره، ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ النحل ١٢٥، ولم يقل الحكمة الحسنة؛ لأن الحكمة حسنة، والموعظة تذكير من شهد مشهداً وشغله غيره ليلتفت إلى مشهده الأول.

وأما المجادلة فهى لمن لم يكن فيه أهلية ولا استعداد، فتقام عليه الحجة بالتى هى أحسن حتى لا يحصل له النفور، وأشار الله تعالى بقوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ النحل ١٢٥، لتكون الحجة قائمة عليه، فإن وفقه الله تعالى أقبل مطمئناً، وإن لم يقدر له توفيقه أدبر وقد قامت عليه حجة الله تعالى قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ الأنعام ١٤٩.

فمن أسعده الله تعالى بمرشد عالم بطريق الوصول ورزقه الله التسليم له، كان ذلك أكبر دليل على سعادته فى الدنيا والآخرة.

ولما كانت تلك الألفاظ كلها مترادفة، كان قولنا شريعة وطريقة بمعنى واحد. ولكن اصطلح السلف الصالح على أن يضعوا لفظ "طريقة" عَلَماً على تلاميذهم، الذين تفرغوا لتلقى العلوم والعمل بها، وأقبلوا بكليتهم على مجاهدة أنفسهم ليتجاوزوا تلك المسافات الشاسعة.

ولما كان لابد من أخذ العهد على عباد الله، وقد أخذ الله العهد على رُسله الكرام

بواسطة ملائكته، وأخذ العهد على رسول الله ﷺ مباشرة، وأخذ الرُسُل العهد على أممهم لله، ولما كان سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، قام العلماء الربانيون فى كل زمان بالنيابة عن جنابه المحمدى ﷺ لأخذ العهود من أهل زمانهم لله سبحانه وتعالى، مبينين لهم سبل الله موضحين لهم سنن رسول الله ﷺ، مصدقين القول فى العهد بالحال، فإن الحال يصدق المقال لذلك صار لفظة الطريق عَلماً على طائفة مخصوصة، هم تلاميذ العلماء الربانيين الذين يتلقون عنهم أسرارهم ويتشبهون بهم فى أقوالهم وأعمالهم، وأخلاقهم وأحوالهم، ويسارعون فى العمل بما يعلمونه منهم، ومن انتسب إلى الطريق ولم يكن مسترشداً على يد مرشد عالم ربانى عامل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فليس من أهل الطريق، ولكنه دَعيٌّ.

فالطريق إذن عمل بالعزائم فى الشريعة المطهرة؛ لأن الشريعة تجمع الرخص والعزائم، ولفظ الطريق صار خاصاً بأهل العزائم، وهذا شئ معلوم من عهد رسول الله ﷺ. فإن كثيراً من أصحابه ﷺ عكفوا فى مسجده ﷺ آخذين بالعزائم، متفرغين لتلقى الأسرار المحمدية والأنوار القرآنية، وبهم رضى الله تبارك وتعالى عنهم اقتدى الخلف بعد السلف، فهم أئمة أهل الطريق وقادتهم. ودام الأمر على هذا حتى كان الرجل إذا رغب فيما عند الله، خرج سائحاً على وجهه يفتش عن المرشد فلا يقر قراره إلا بعد أن يصل إليه، فإذا وصل إليه عكف عليه.

ومن أحب أن يعلم سيرتهم فليقرأ تراجمهم عليهم أفضل الصلاة والسلام، فإنهم هجروا الأوطان، وفارقوا الأهل والأولاد، سعياً فى طلب الرجل الدال على الله، بقوله وعمله وحاله، ولا يخلو زمان من الرجال المجددين لسنة رسول الله ﷺ القائمين بحجة الله.

ولا خلاف بين الشريعة والطريقة، لأن أهل الطريق اهتموا بعمل القلوب؛ لأن أساس الخير كله عمل القلوب، ولعلك تعلم أن النفاق قد يخفى على كثير من العلماء، فقد يكون الرجل منافقاً وهو يحسب نفسه من أكمل الموقنين، وذلك من عدم عنايته بعمل القلوب واهتمامه بظاهره.

وجلى أن القلب محل نظر الرب سبحانه ولذلك سارع رجال الطريق إلى صفاء قلوبهم،

وتخليتها من النجاسات، لتخلص لهم الإرادة ويكمل لهم القصد وتصح العزيمة، حتى يبلغوا درجة فقه القلب، وكم من فقيه اللسان جهول القلب، وكم من فقيه القلب جهول اللسان، وإنما هى مراقبة الله جل جلاله بالقلوب، تكسبها خشية وخوفاً ورهبة وحباً وثقة به جل جلاله، وصبراً على مُر قضائه وقدره أو رضى عنه فى كل شئونه سبحانه.

ولعلك تسألنى قائلاً: إنك تقول لا خلاف بين الشريعة والطريقة. مع إنا نرى الخلاف بين كثير من الناس، فنرى أهل الطريق ينكرون على غيرهم، وغير أهل الطريق ينكرون على أهل الطريق إنكاراً مُراً، حتى يرموهم بالبدعة والضلالة والخروج عن الشرع!.

فأقول لك: يا أخى لا يلزم من حصول الإنكار وجود ما يُنكر عليه أو الاختلاف بين الشريعة والطريقة، ولكن ما تراه من الخلاف بين الناس فى مثل هذا، فهو للجهل بأصول الطريق ومآخذها، أما الإنكار من أهل الطريق على غيرهم فلم يكن ذلك من علمائهم، ولكنه من بعض من يؤذيهم إنكار المنكرين، وإن كان ثم إنكار فهو على الشخص المنسوب للطريق، الذى يخالف أحكام الشريعة مُدعياً أن ذلك من الطريق وهو كاذب؛ لأن الطريق هو روح الشريعة والأخذ بعزائمها.

وليس من أهل الطريق من خالف صريح السُنة، ولجهل الناس صاروا ينكرون على الطريق إذا شهدوا رجلاً من أهلها يعمل ما يخالف الشريعة، وكذلك إنكار أهل الطريق على العلماء، لأنهم رأوا من يدعى العلم يعمل بغير علمه، فالإنكار على عمل الأشخاص لا على الطريق، والطريقة منهاج المخلصين.

والحقيقة أن الشريعة اسم جامع للعزائم والرُخص، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ البقرة ١٩٤، وقال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الشورى ٤٠، فمن اعتدى على من اعتدى عليه عمل بالشريعة، ومن عفا وأصلح عمل بالشريعة، ولكن من عفا وأصلح تميز عن غيره لأخذه بالعزائم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

الشريعة والحقيقة

لا خلاف بين الشريعة والحقيقة، فإن الشريعة حقيقة والحقيقة شريعة، فالشريعة فى الاصطلاح أمر بالقيام بواجب العبودية، والحقيقة شهود معانى الربوبية. ولا يكون المسلم مسلماً كاملاً إلا إذا وفقه الله فالتزم العبودية، وتفضل الله عليه فأشهده معانى الربوبية، فشاهد فى الشريعة أسرار حكيم وفى الحقيقة أنوار قادر، ومن أحاط بالشريعة علماً، والتزم العبودية، ولم يشاهد معانى صفات الربوبية فغير مقبول، وكل من شاهد معانى صفات الربوبية ولم يتقيد بالشريعة لم يفز بمحصول.

سبيل التحقق مسلك الأرواح ... هو الغيب محظور على الأشباح
منار معالمه خفى عن النهى ... وأسراره لم تبد بالإفصاح
نعم هى سبل الله يهدى بنوره ... أولى القرب والإخلاص سبل فلاح
ومن جاهدوا فى الله يبغون وجهه ... يناوله الوهاب صرف الراح
يريهم من الملكوت آى جماله ... وأسرار غيب بالضيا الوضاح
بها يعرف الإنسان رتبته التى ... بها يحظى بالبشرى ونيل سماح
ويعرف مولاه العلى تنزهت ... مكانته عن حيطة الأرواح
يجمل بالتحقيق بعد تمكن ... من العلم بالأحكام والإصلاح
وتحقيقه بالعجز والعجز علمه ... وعجزى عن الإدراك كل نجاحى
وأما سبيل العلم بالحكم ظاهرا ... بكسب وتعليم فللأشباح
وشتان بينهما فهذا مدامة ... وذاك على الإجمال كالأقداح

السالك والسلوك

الرجل السالك حقيقة من ذاق حلاوة الإيمان، بسر أضاء بالعلم الحق، وتحقق باليقين الكامل، وظاهر فظهر بعلوم الشريعة، عاملاً بما علم حتى تكون أخلاقه كاملة، بمعنى أنه يتحقق كل إنسان سواه مُجمل بجمال الأخلاق، وأنه محتاج بأن يتخلق بما عليه غيره، من حسن الأخلاق وصحيح الأعمال، وذلك لأنه لا يجالس إلا أهل الخير، ولا يعاشر إلا أهل الصلاح والعلم، لأن السالك من سلك طريق الخير، لحبهم له وحبه لهم، وميله إلى اتباع مناهجهم، فهو لا يهوى إلا أهل التقوى التى تزكت نفوسهم، والأبدان التى تخلت عن خبث الصفات، وقبيح الأعمال، وتحلت باتباع الشرع، والعمل بما يقتضيه كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، ويتباعد عن مجالس اللهو والفسوق، وأهل الغرور بالله تعالى الجاهلين المستدرجين.

فهذا السالك لا يقع نظره إلا على تقى مقرب أو زاهد عابد أو فقير مبتلى، فيكون ساخطاً على نفسه وتقصيره، شاكراً ربه على نعمه ونواله، لا يزداد فى كل نفس إلا قرباً إلى الله تعالى وشوقاً إليه، وذماً لنفسه وتخلية لها وطهارة لأخلاقه وتجملاً لكمالها، فلا يرى على البسيطة أقبح عملاً منه ولا أجهل منه ولا أحوج منه، وبذلك يحبه الله ويجمله بأخلاقه الربانية، ويُحليه بنور عيون الشرع الشريف، فيحبه الناس أهل الخير ويألفونه، فلا يزداد من الله إلا قرباً ومن الناس إلا حباً، يتباعد عن الدنيا فتطلبه، ويجد فى القربات فيجعله الله متيسر الأمر منشرح الصدر، تتوالى عليه البشائر وتوافيه الخيرات والبركات، وهو ذلك المشغول بربه الخائف منه الراغب فيه، فإذا أحبه الخلق وتوالت عليه النعم، وجب عليه الفرار إلى الله من الركون إلى تلك الآثار، التى ربما شغلته فجعلته يعرض وينأى بجانبه، وهى نقطة المحنة ومكانة الفتنة، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾

الإسراء ٨٣.

وهذا سببه أنه لم يخرج من إنسانيته ولم يتطهر من بشريته، والأحرى بمن هذا شأنه، الفرار من الخلق والتباعد عنهم، حفاظاً على نفسه من القطيعة، أما السالك الصادق فهو ذلك العبد وإن مُتع بكلمة " كن " ، لا تحجبه الآلاء عن عظمة المنعم ولا تشغله الآثار عن

خوف مقام المؤثر، ولديها يرث الأحوال النبوية ويتناول من كوثر التحقيق شراباً طهوراً، يتلقى به من ربه سبحانه أسرار المعرفة وآيات القربات وعيون حقائق الأعمال والمعاملات.

وبذلك يصلح أن يكون رجلاً من أفراد الرجال، المخصوصين بخلوته وجلوته، وقد يتحقق الرجل بكل تلك المقامات بسابقية الحسنى، فتفاض عليه حلل الإقبال والقبول، فضلاً من الله ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ يونس ٥٨، وهم أهل العناية، المطلوبون للحق بالحق، انظر إلى الصديق الأكبر، وإلى باب الفتوة لسان النبوة حيدرة، وإلى سلمان الفارسي، وبلال، وأمثالهم عليهم السلام كيف اختطفتهم العناية ففازوا بالخصوصية المحمدية، بباعث نفساني بدون سابق جدل أو معارضة أو بحث ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ الجمعة ٤.

وهكذا في كل زمان، أفراد جذبتهم العناية، فكانوا نجوم الدين، وشموس السنة وبدور الشرع، بهم ينظر الله تعالى إلى عباده، وبهم يسبغ رحمته، وبهم ينزل الغيث ويمهل الظالمين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الأنفال ٢٣.

ورسول الله ﷺ في هؤلاء الأفراد حالاً وقولاً وعملاً بحقيقة الرسالة للوراثة المخصوصة و﴿فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الحجرات ٧، إذا تحقق عبد الذات بهذا المقام، كان فرد الحق المخصوص بأنه بأعينه، لنيابته عن السيد الأكمل ﷺ.

أهل السلوك على الصراط تفردوا ... بالاتباع لهدي طه أيدوا
فروا إلى الله العلي بهمة ... منه به في سيرهم قد سددوا
غابوا عن الكونين شوقاً للقا ... وبسابق الحسنى لهم منه هدوا

سيرة العالم الرباني

العَالِم عزيز على الباطل ذليل للحق، كاظم للغيظ عمن آذاه، شديد البغض لمن عصى مولاه، يجيب السفيه بالصمت عنه، والعالم بالقبول منه، لا مداهن ولا مشاحن ولا طعان ولا لعان ولا مغتاب ولا سفيه ولا جاف ولا فظ ولا غليظ ولا سباب.

يخالط من الإخوان المعاون على طاعة الله، ومن ينهاه عما يكره مولاه، ويخالق بالجميل من لا يأمن شره إبقاء على دينه، سليم القلب للعباد من الغل والحسد، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين فيما أمكن فيه العذر، لا يحب زوال النعم عن أحد من العباد، يدارى جهل من عامله برفق، إذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل، لا يتوقع له بائقة ولا يخاف منه غائلة، الناس منه فى راحة ونفسه منه فى جهد، ومن كانت هذه صفاته وأخلاقه وسيرته، جعله الله وارث علم الأولياء وقرة عين الأتقياء، وطبيباً لقلوب أهل الحياء.

العَالِم من يأمن شره من خالطه، ويأمل خيره من صاحبه، لا يؤاخذ بالعثرات ولا يشيع السوء عن غيره، ولا يسئ الظن بمن حوله، ولا يقطع بالإشاعات والمفتريات، يعفو ويصفح عمن عاداه، فلا يفشى سره، ولا ينتصر منه ولا ينتقم.

العَالِم من يكون لله شاكراً وله ذاكراً، دائم الذكر لحلاوة حب المذكور جل جلاله، مُنعم القلب بمناجاة الرحمن، يعد نفسه من شدة اجتهاده مخطئاً مذنباً، ومع الدَءوب على أحسن الأعمال مقصراً... لجأ إلى الله فقوى ظهره، ووثق بالله فلم يخف غيره، استغنى بالله عن كل شئ، وافتقر إليه سبحانه فى كل شئ. أنسه بالله وحده ووحشته ممن يشغله عن ربه.

إن ازداد علماً خاف توكيد الحجة، وأشفق على ما مضى من صالح عمله ألا يقبل منه، همه فى تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه، وفى سنن رسول الله ﷺ الفقه لئلا يضيع ما أمر به، متأدب بالقرآن والسنة، لا ينافس أهل الدنيا فى عزها ولا يجزع من ذلها، يمشى على الأرض هوناً بالسكينة والوقار، وقلبه مشتغل بالفهم والعبرة، لا يفرغ قلبه عن ذكر الله أبداً، وإن فرغ فمصيبته عظيمة، وإن أطاع الله بغير حضور قلب فهو عنده الخسران المبين، يذكر الله مع الذاكرين، ويعتبر بلسان الغافلين، عالم بداء نفسه ومتهم لها فى كل حال، اتسع فى العلوم فتراكمت عليه الفهوم، واستحيى من الحى القيوم، شُغله بالله فى جميع أحواله متصل، وعن غيره منفصل.

ومن أوتى من العلم ما لا يبكيه فخليق ألا يكون أوتى علماً ينفعه، لأن الله عز وجل نعت العلماء، فقال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ

لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ الإسراء ١٠٧- ١٠٩، وهكذا وصف الله العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينهم وبينه.

والعَالِمُ نجاة العَالَم، فإذا نزع الله الرحمة من قلبه نزع معها النفع بالعلم، وصار العلم من النقم بعد أن كان أعظم النعم، وقد كان إبليس من كبار العلماء فأهلكه علمه، قال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم جهلكم. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ الروم ٧، فمن ادعى العلم ولم يتواضع فهو عالم بعلوم إبليس، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الجاثية ٢٣، أعوذ بالله من علم هو عين الجهل، بل يكون الجهل أقرب إلى الخير منه، لأن الجاهل يسعى ليتعلم، ولكن الآخر قد ملكه الغرور، فباعد بينه وبين التواضع.

لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تعطوها غير أهلها فتظلموها.

إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعرفه إلا العلماء بالله، فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله، ومن أباح لطائفة من المسلمين علماً ليسوا له أهلاً، فقد أخطأ آداب العلماء.

سكينة العالم دليل على تمكنه، وبرهان على الرسوخ فى العلم، بخلاف الانزعاج والرعونة وعدم التروى، فإنها دلائل على عدم البيان والتحقيق. والرحمة من أخص صفات العلماء، لأن العالم وارث سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ. وأجمل صفات سيدنا محمد ﷺ ما أثبتها الله تعالى له ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة ١٢٨، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ آل عمران ١٥٩.

فإن قيل من العَالِم؟ فيقال: هو المتصور للشئ على حقيقته. فإن قيل: ما العلم؟ فيقال: هو صورة المعلوم فى نفس العَالِم. فإن قيل: ما الحى؟ فيقال: المتحرك بذاته. فإن قيل: من القادر؟ فيقال: هو الذى لا يتعذر عليه الفعل متى شاء. فإن قيل: ما الفعل؟ فيقال: أثر من مُؤثِر فى مُؤَثَر فيه. فإن قيل: ما معنى البارى تعالى؟ فيقال: مبدع المبدعات ومخترع الكائنات متقنها

ومتممها ومكملها ومبلغها إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها، بحسب ما يأتى فى كل واحد منها.

❊ ❊ ❊

طبيب الأرواح وعلاماته

أولاً طبيب الأرواح

إن النفوس لتمرض كما تمرض الأشباح، وإن مرض النفس أنكى من مرض الأشباح، فإن الجسم إذا مرض سينتهى إلى الموت، والنفس إذا مرضت ستنتهى إلى نار جهنم، ولابُد من الموت، فتجب العناية بمعالجة النفس قبل معالجة الجسم، فإن سعادة النفس بها سعادة الجسم الباقية، وسعادة الجسم لا تستلزم سعادة النفس.

طبيب الأرواح هو إنسان جمله الله تعالى بالعقيدة الحقة، والأعمال الصالحة والأخلاق الجميلة والمعاملة الحسنة، ومنحه ما هو فوق ذلك من الإذن بالبيان وعلم سيما الناس، قال سبحانه: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلّٗا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ الأعراف ٤٦، فأمكنه أن يبين الحقائق لكل طبقة من الناس بقدرهم، وأن يعالج أمراض النفوس بما تنجذب به لحضرة القدوس، وهو فى عصره أشبه الناس برسول الله ﷺ خَلقاً وخُلقاً.

ثانياً علامات طبيب الأرواح

أكبر علاماته ما وصفه الله تعالى به فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ المائدة ٥٥، وفى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ الحج ٤١، وما وصف الله به أهل معية رسول الله ﷺ فى آخر الفتح، ومن علاماته زهد فى الدنيا وفقر فى غنى وذل فى عز، وخشية من الله تعالى مع كمال الإقبال عليه سبحانه، وحب فى الفقراء، ودوام مراقبة الله تعالى، وحرص على سُنة رسول الله ﷺ، وحب النصيحة لجميع الخلق، وبُعد عن زيارة الأمراء والأغنياء، وتحمل الشدائد، وعفو مع المقدرة، وإيثار مع الحاجة، وغيرة لله مع المسكنة، وعلم يضئ فى ظلمات الشبهات.

وأهم علاماتهم أن يغضبوا لله وأن يرضوا لله. ومن هم؟ وأين هم؟ قلوا والله... وهم سُرج الدنيا ومصابيح الآخرة. واختفوا وهم شموس مشرقة فى ملكوت الله، واحتقرهم الناس رغبة فى الدنيا، وبهم سعادة العالم أجمع، كما قال علىٌ عليه السلام فى الحديث الطويل: وأين هم؟ ومن هم؟ واشوقاه إليهم، اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهراً مشهوراً وإما باطناً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته.

تنبيه للسالكين من الاقتداء بالمضلين

كثُر أطباء الأشباح كثرة فاقت الحصر، وانتشر بين الناس دعاة إلى الشر، يدعون الناس إلى غضب الله، ظاهرهم ظاهر الأنبياء، وقلوبهم قلوب الشياطين، حفظ الله جماعة المسلمين من شرهم، وصدق الله العظيم فى قوله: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ النساء ١١٤، وهنا ننبه السالكين إلى هذا الأمر العظيم، لأن اقتداءهم بالمضلين موجب لغضب الله تعالى، وكيف لا والحق لا يخفى على مسلم، لأن النجاة لا تتحقق إلا باتباع رسول الله ﷺ، وكيف يقتدى مسلم بمن يخالف أحكام القرآن، وأعمال النبى ﷺ؟ وأصل المحبة إنما هى لله ولرسوله، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الزخرف ٦٧.

معانى صحبة المرشد

السالك فى طريق الله تعالى يصحب المرشد لمعان ثلاثة:

١ تحصيل العلم النافع.

٢ تلقين فى العمل الذى هو من صحيح السنة.

٣ تمرينه على اكتساب الأدب اللائق للوصول إلى الله تعالى.

قال موسى وهو من أولى العزم للخضر وهو ولى مرشد ملتمساً معه الصحبة: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ الكهف ٦٦، فعلم الخضر من موسى أنه يريد أن يتعلم سر الإرادة، ومضنون سر القدر فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ الكهف ٦٧، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ الكهف ٦٨، ومع ذلك فإن السالك يلزمه أن يحصل العلم، وأن يعمل به، حتى تزكو نفسه، ويزول لبسه، وبعد ذلك يكاشف بأسرار الغيب فى الكائنات وفى نفسه، وبغيب الغيب لما يلقيه المرشد عليه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾

الكهف ٦٨، مع أنى تلقيت هذا العلم من عند الله فأنا أبرزه فى صورة إشارية، لم يسبق لك تحصيل العلم بأصولها، فأجابه موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ الكهف ٦٩، ولما كان علم الخضر يباشر تلك الحقائق، التى يبرزها فوق علم اليقين، بل هو فى مقام عين اليقين، سلَّم له، معتقداً عدم صبره من دلائل العلم بأصول تلك الحقائق. التسليم للمرشد فى جميع أقواله وأعماله وأحواله، تسليماً خالصاً من غير ريبة ولاشك، ولكن يلزم أن يكون مع الابتهال إلى الله تعالى أن يكشف غوامضها، ولكن الكليم عليه السلام لأنه من أولى العزم لا يقوى على التسليم للخضر، بل كانت تدعوه مكانته من الرسالة إلى كشف سر كل حدث يحدثه الخضر. والمرشد لا يُسأل، ولكنه يبين للسالك تلك الحقائق بحسب ما يرد عليه، فدعت الحقائق موسى أن يسأل على كل حدث، فأجابه الخضر عن الأولى الغيب، وعن الثانية بعد التنبيه، وعن الثالثة وفارقه.

مراقى الوصول إلى المقام الأكمل ... حسن اقتداء بالولي الكامل
صدق الإرادة فى اتباع سبيله ... إذ كل فضل الله صدقك للولى
كن أنت هو فى قصده ومراده ... وكن الذليل له ومنزله علِ
أسرع إذا أيقنت أن مراده ... في أمره وبدا لقلبك كالجلى
لا تفعلن غير المراد لو أنه ... أبدى لك الأمر الشديد بمجمل
وإذا فعلت الأمر وهو مخالف ... تب نادماً منه بغير تأول
فلهم شئون لا يلوح خفيها ... إلا لميت عن هواه بمعزل
قد يأمرون بغير ما هو قصدهم ... ومرادهم يبدو لفرد عامل
طوراً تراهم والبشاشة حالهم ... ومقامهم حقاً بأرهب منزل
آناً تراهم فى انقباض ظاهر ... شهودهم ينبى بسر تجمل
فاحذرهمو فى قبضهم أو بسطهم ... وكن الولى لهم بسر تنزل
وابذل لهم قبل الإشارة كل ما ... تملكه من مال وجاه واصل
ولدي الإشارة فابذل النفس التى ... تعطى بها وجه الجميل الأول
وكن المقصر دائماً لو أنهم ... رفعوك أعلى رتبة أو منزل

وإذا بـذلت الـنفـس من مـرضـاتهم فـتحقق الـتقـصـير كل تـسـاهل
وبـذلك تعطـى الفـضل والـرضـوان من مـولاك بـالـزلفـى وإحـسـان الـولى
يـاذا العـطـايـا والهبـات فـوفقـن روحـى لـتحـظـى بـالجـميل الأزلى
جمل حبيبـى ظـاهـرى مع بـاطنـى بجمال فـضلك يـا مجيب الـسـائل
وعلى الحبيب المصطفى شمس الهدى منـك الـصلاة مع الـسلام الأكـمل

آداب السالك

كل سالك يتأثر بأذنه يجب أن يفر من أهل البدع المفتونين، ومن أهل الشرور المبطلين، حتى تتلقى نفسه من عالمها الأعلى، فتكون له الحُجة على من خالفه بعد اتضاح المحجة.

للسالك نشوة من خمرة المحبة تجعله فى مقام التمكين فى مقامات القربة، فلا يضره المخالف وإن كان ذا سلطان قاهر، ومثل هذا السالك محبوب مراد، أينما حل أفاد، وللعناية أفراد سبقت لهم الحسنى، ليس بين الرجل منهم وبين الوصول إلا أن يسمع الحكمة من فرد موصول، وإن الوصول إلى الله تعالى لأهل هذه المقامات بكلمة واحدة، وبرهان ذلك أصحاب رسول الله ﷺ سمعوا كلمة التوحيد فبلغوا مقامات التحقيق. والمراد بهذا المقام العلىّ قد ينتفع بالحكمة ممن هو غير أهلها، فإنها تفك رمز كنوز الغيوب، وتصرف عن النفوس الشك والريب، ولعلك فقهت قول رسول الله ﷺ: (رب مُبَلغ أوعى من سَامِع).

قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ المائدة ٥٤، ويفهم أن ﴿فَسَوْفَ﴾ هذه تفيد أن هؤلاء القوم يأتون بعد أن يرتفع رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأهل هذا المقام ما فقدوا إلا الجسم المحمدى، ولكن رسول الله ﷺ بمعناه معهم حيث كانوا لم يفارقوه نفساً.

أدب السالك مع المرشد

لما كان المرشد صورة رسول الله ﷺ بالنسبة للسالك، والسالك الصادق تتوالى عليه

الواردات التى تدعوه إلى طمأنينة القلب، ولا يطمئن القلب إلا بالبيان كل البيان، والمرشد أعلم بقواه القابلة منه، وقد يمتحن تسليمه بعمل ما تنزعج منه العقول، أو يقول ذلك لتقوم الحجة على كمال تسليمه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥.

والميزان الراجح فى هذا عمل موسى مع الخضر عليهما السلام، قال الله تعالى مخبراً عن موسى مع الخضر عليهما السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ الكهف ٦٦- ٦٩.

انظر يا أخى إلى تلطف موسى وتواضعه، وإلى خشونة الخضر وتصريحه بما لا تقبله النفوس الكبيرة، فضلاً عن نفوس الرُسُل عليهم الصلاة والسلام، ولكن هذا القول امتحان منه ليعلم قوة تسليم موسى عليه السلام، وفى هذه الآية أكبر عبرة للسالك والمرشد. فإذا قال للمرشد: لم؟ بعد أن قامت الحجة ووضحت المحجة على أنه يصحب مرشداً كاملاً، كان ذلك نقصاً فى حسن اتباعه له.

وانظر إلى فعل الخضر الذى يخالف ظاهر الشريعة، وكليم الله إمام الشريعة وأكمل الناس غيرة لها، وكيف لا... وقد سأل الله أن يهلك فرعون ومن معه غيرة للشريعة، ومن هذه الآية الشريفة وجب على السالك أن ينظر إلى المرشد بعين الروح لا بعين العقل، لأن المرشد الكامل يعمل بواجب الوقت، لأنه ألهمه الله تعالى علم ما لم يعلمه الناس، وفقهه فى الدين. إلا أن السالك يجب أن يقف عند حد الشريعة فيما يختص بنفسه، غير منتقد ولا متأول، حتى يكشف له المرشد عن الحقائق التى يطمئن بها قلبه بعد التسليم للمرشد، فإن طمأنينة القلب فوق الإيمان، قال الله تعالى لخليله عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ البقرة ٢٦٠، وطريقنا كله أدب، ولا أدب إلا بالمحبة، ولا محبة إلا بالعلم، ولا علم إلا بالاستقامة، ولا استقامة إلا بالإيثار. اللهم اهدنا صراطك المستقيم يا رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

لدى مجمع البحرين فى المطلع الحد   تراءيت سر الجمع فى الوصل والورد
تذكرت موسى والفتى فى سياحة   فراراً إلى الرحمن فى جذبة الود
إلى العبد يرجو كشف سر حقائق   من الغيب بالتأويل فى بغية الرشد
فخرق السفينة رمز سر تواضع   فيسلم من شر النفوس ومن ضد
وقتل غلام فيه إشارة   إلى قتل نفس الطبع بالعزم فى العهد
ورفع جدار فيه حفظ أمانة   لتعطي لأهليها بصدق بلا رد
وفى علمنا التأويل رمز إشارة   ليفقهها أهل المقام بلا كد
علوم علت عن درك عقل وفكرة   بها يجحد الخب اللئيم لدى العبد
وفى مجمع البحرين لاحت حقائق   بها شاهدت روحى جمالا من المجد
من البحر ماء الملح كونت نيلنا   رجعت إليه تبتغى بهجة العود
وقد صاغنا الرحمن صورة حسنة   إليه يعيد العارفين كما يبدى
إليك اجذبنا واجمعنا برحمة   فإنا شهدنا مجمع البدء فى الحد
رأيت نعم بحرين نيلا وأبيض   لقد جمعا والأصل يجمع بالقصد
من البحر بحر الروم يانيل فادكر   أيا أيها الإنسان سابقة الوعد
بيمناه جل الله صاغك صورة   وأظهرك الرحمن فى الكون للرد
أعدنا إلى الرحمن فى حلة الرضا   إلهى وأيدنا بحبك فى الورد
أمتنا على الإسلام واجعل قبورنا   رياض جنان فى ابتهاج وفى سعد
لنا فافتحن كنز العطايا عميمة   وهب سيدى الرضوان والفضل مستجد
وأولادنا أكرم بفضلك والرضا   لإخواننا هب واسع الفضل بالود

من أسرار الصوفية فى العلم والإيمان

حاجة المجتمع إلى علم الآخـــرة وعلمائها

إن احتياج المجتمع إلى العلم والعلماء فوق احتياجه إلى الخبز والهواء والماء، وليس العلم الذى هو ضرورى للإنسان ما يحصله لينال به جاهاً فى دنياه، ومنزلة عند الوزراء والأمراء، وتيسيراً لكمالياته، فإن هذا لا يسمى علماً بل هو فن أو حرفة، وكل فرد من بنى الإنسان ينافس فى تلك القصود فوق منافسة الأسود لاغتيال الحيوانات الداجنة، وعندى أن متقن الفن ومحسن الحرفة خير للمجتمع حساً ومعنى، ممن حصل ما يسمونه علماً لجلب الدنيا، لأنه أضر على المجتمع من الوحوش الكاسرة.

وكيف لا... وكل واحد منهم يتفنن فى إسقاط الآخر بكل ما يمكنه من إيقاع به أو نشر ما يضره عنه، بأساليب الكيد والحسد والغيبة والنميمة والكذب، ليفرح بالانتقام من نظيره، ويسر باستيلائه على ما فى يده من جاه أو منصب أو صلة بعظيم؟

فهم علماء نعم، ولكن بطرق الوصول إلى الدنيا، وحكماء نعم، ولكن بأساليب العظماء، والاستيلاء على أفكارهم، وأعنى بالعلم العلم النافع الذى به سعادة المجتمع فى الدنيا والآخرة، وهو العلم الذى يُكسب الإنسان صدقاً فى لهجته، والقلب إخلاصاً فى نواياه، وخشوعاً من هيبة المعلوم، والجسم زهداً فيما يكرهه الله، والعقل ترفعاً عن أن ينخدع بالحس ومقتضياته، والنفس رهبة من الله وسكوناً إليه، وهذا هو العلم الذى أثنى الله على أهله، وفرض طلبه.

علم الدنـــيا وعلماؤها

وإنا والحمد لله أصبحنا وقد توفرت لدينا معاهد العلوم التى تحصل فيها أدوات الدنيا وآلاتها، وتعددت تلك المعاهد حتى أصبحت لا تحصى عَداً، فأصبح للطب مدرسة وللبيطرة مدرسة وللتجارة أخرى وللزراعة مدرسة ولعلوم الرياضة بأنواعها مدرسة ولرجال الإدارة

مدرسة (مدرسة البوليس)، ولرجال الجهاد مدرسة (مدرسة الحربية) وللقائمين بالأحكام مدرسة (الحقوق والقضاء) وللفنون الجميلة أخرى وللصناعة مدارس، وقد انتشرت دور الصناعة (الورش) مع ما للأجانب من المدارس التى يحصل فيها أبناء مصر من العلوم والعوائد والأخلاق، كل ذلك لم يكتف المولعون بالتقليد به، حتى هموا ليخفوا آثار العلم النافع، ويطفئوا أنواره الباقية فى مصدره الحقيقى، ولا ندرى أشراً أرادوا أم خيراً بحسب حكمهم، وتقليداً عملوا أو اجتهدوا بحسب زعمهم، فجعلوا مدارسهم لتحصيل ما ينفع تلك الدار الدنيا، وينفع عند أهلها، ويكسب الجاه والشهرة والمنافسة فى حطامها، حتى أصبح الطالب يفد عليها، وكله أمل أن يحصل كذا لينال كذا، ويكون مثل فلان، اللهم إلا من كان جوهر نفسه من أنفس الجواهر، وأنه ينفع فيما هو مؤهل له.

فإنا نسأل هذا السؤال: هل ما يعلم فرض عين أو فرض كفاية؟ وهل إذا كان فرض كفاية، فهل فى الأمة من قام به من خريجى غير الأزهر أم لا؟ وهل إذا قام به رجال حصلوا العلوم فى غير الأزهر، فلم لا يكون الأزهر ينبوعاً من ينابيع العلم النافع للمجتمع الإسلامى؟

وأسألهم سؤالاً آخر: هل من علم الآخرة علم اليقين، وما فيها من النعيم المقيم والعذاب الأليم، وعلم الدنيا علم اليقين، وما فيها من العناء، وما هى عليه من الزوال والفناء، وأن لكل نَفْس سجلاً يطوى ينشر يوم القيامة، ينفق أنفاسه، أو يضيع أوقاته مفسداً، أو يسعى للشرف والبذخ والجاه، وجلب الأموال والتزلف إلى الأمراء والعظماء؟ أرجو أن يكون الجواب سديداً.

وسؤالاً ثالث: أرجو أن يبينوا لى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر ٢٨، مع تعريف الخشية ومحلها، والأحوال التى تنتج عنها؟ وهى الحجة على تصديق المدعى لها، وسأشرح بعد حقيقة العلم النافع للناس، والفرق بين علماء الدنيا والآخرة، وفوائد علماء الآخرة للمجتمع، ومضار علماء الدنيا للمجتمع، والله ولى التوفيق.

* * *

الشيطان والإنسان

الإنسان يجهل نفسه مع أنه هو الإنسان، ويجهل حقيقة ينسب إليها كل الشرور معتقداً عداوتها، فلا ترى إنساناً إلا وهو يلعن الشيطان، وينسب إليه ما يعمله من الشرور.

وما دام الإنسان يجهل نفسه، فهو بعيد عن الفضائل محروم من نيل الكمالات، وما دام يجهل الشيطان فهو هاوٍ فى مهاوى المقت والعذاب، لأنا نرى كثيراً من الناس يتلذذون بالشرور، ويبتهجون بضرر الغير، مفتخرين بتلك الرذائل، فرحين بوقوعها منهم على غيرهم، فإذا قابلهم الغير بمثلها لعنوه، وقالوا: شيطان، وشنعوا عليه، وذموه، واستنجدوا بالناس عليه ليطهروا الأرض منه، فيرون أقبح القبائح من أنفسهم حسناً، ويرون الهفوة من غيرهم أقبح القبائح، كل ذلك لجهلهم بأنفسهم وبالشيطان.

ترى الجاهل يذكر فضائل الغير حامداً له، شاكراً متعصباً له، غيوراً عليه ناشراً فضائله، مع أنه إنسان نظيره، يمكنه بسهولة أن يبلغ ما بلغه من الكمالات. هذا وبينما تراه يمدح فضائله يقع فى الرذائل التى هى من صفات الشيطان.

إنك ترى الفسقة والفجار والظلمة يهابون الأتقياء، ويعظمونهم، ويتبركون بهم، حباً فى الفضائل، وإكراماً للتقوى، ومع ذلك يصرون على الشرور والقبائح، ولو أنهم عرفوا أنفسهم وعرفوا الشيطان، لتجملوا بتلك الفضائل بسهولة. ولصاروا أئمة هدى، يحبهم الله ورسوله ﷺ ويحبهم الناس جميعاً.

وهنا سألنى سائل: كيف أعرف نفسى وأعرف الشيطان؟ أجيبه: قال رسول الله ﷺ: (من عرف نفسه فقد عرف ربه). وقال ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ فاطر ٦.

وقد وردت الآثار فى كل الكتب السماوية بعداوة الشيطان، مبينة أعماله وطرق التحفظ منه، ولكنى أجيب على هذا السؤال: إنك أيها الطالب معرفة نفسك، ومعرفة الشيطان طلبت مقصداً عظيماً، يجب أن ينال علماً وعملاً، وطالب السعادة الأبدية يبذل لنيلها أنفاسه النفائس مستقِلاً لها، فاطلب عارفاً بنفسه عارفاً بربه، تعرف الحقائق.

العلم حد وفوق العلم أنوار ... والنور غيب وفوق الغيب أسرار
والسر يجذبنى لشهود حضرته ... والكشف فضل وفوق الفضل أقدار
لى حظوة فى مقام القرب غامضة ... عن كل روح بها الإحسان مدرار
من فوق ذلك غيب فى عماً ... منزه لم يرى معناه أبصار
لم تدركنه عقول فى نزاهته ... لكن يراه فتى لله المختار
فيه يغيبنى عنى بطلعته ... وهو الولى وتواب وغفار
بعد الفناء فلا رسم يحيرنى ... أخفى عن الروح والمشهود ستار
لى فوق ذلك ما لا قد أبوح به ... فوق الإشارة لا تبديه أخبار
فى قهر حالى قد أفنى فأظهره ... رمزا وفيه الفتى المحبوب يختار
لى نشوة بعد رشف الراح تسكرنى ... فيها الجميل تجلى وهو قهار
الحق يظهرنى كورا ويسترنى ... والستر فى القرب حال الصفو إظهار
ألقى على محبته ليظهر لى ... نوراً به تختفى فى القرب آثار
نور اتحاد فنزه عن مشابهة ... ذق من إشارات من وصلوا ومن ساروا
سلم فنور التجلى دك من شهدوا ... بل أصعق الفرد فى التقريب إسفار
قد دك طور التجلى بل وقد صعقت ... روح الكليم وقد لاحت له النار
صارت له النار نورا والجمال إذا ... بالقرب قدساً وقد والاه جبار
نودي ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ يا موسى فكلمه ... والكل نورك والنيران أنوار
تلك العناية من أزل إلى أبد ... تولى وإحسانه بالحب مدرار

محادثة العلم والعلماء

طالب جاهد نفسه جهاداً أكبر لينال بغيته من العلم، فتحصل على ما مالت نفسه إليه، وناظر شيوخه وأساتذته حتى ظهرت له المساواة، وكان يعتقد أن أهل العلم لهم درجة عالية بنص قوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة ١١.

فلم يجد لنفسه درجة فوق ما كان عليه قبل التعلم، ووجد الذى كان عليه فى دار أبيه، من الصلاة والزكاة والصيام لم يزد، وربما حصل التساهل فى تأديتها، فتعجب وقال: ما الذى اكتسبته من التعلم؟ وابتهل إلى الله تعالى أن يكشف له الستار عن الحقيقة، وأن يبين له أقرب الطرق الموصلة إليه، وأصفى الموارد المقربة منه سبحانه وتعالى، وجلس متوجهاً إلى الله بقلبه. وفى هذا التوجه حضر قلبه، فرأى أنه فى مجتمع من أهل الصفا مع الله تعالى، وكأنهم فى مجلس علم وكأن العلم يبين له حقيقته، فأصغى بأذن قلبه متجرداً من هيكله الإنسانى ولوازمه، مقبلاً بكُليته على التلقى فسمع العلم يقول: إنما يُحتاج إلىَّ عند غيبة الحقيقة لأرسمها على جوهر النفس بمقدار قابلية النفوس، لا بقدر الحقيقة على ما هى عليه، فإذا صفى جوهر النفس ورسمت عليه صورة الحقيقة، تاقت النفس إلى جلية الأمر وكليته، فارتقت من العلم إلى الذوق، ومن الذوق إلى الشهود وجداً، ومن الشهود إلى العيان وجوداً، ومن تلقى العلم فظن أنه بلغ الغاية بالعلم، حُرم الرعاية وهى العمل بالعلم، فإن كمال العلم العمل به، لأن العمل به دليل على حصول علم الرعاية للعالم، ومن حُرم الرعاية حُرم العلم، أى لازمه، وأنا وإن كنت مقصداً عظيماً لمن رغبوا فى السعادة، إلا أنى بعد تحصيلى أكون وسيلة لمقصد عظيم، وكل علم لم يكن معلومه الله ورسوله، فهو فى غايته تحصيل ما به حفظ الصحة وبقاء الحياة فى كون الفساد.

سأله أحد أهل الصفا الجالسين قائلاً: يا أخى، ولو كان علم أحكام الله تعالى؟ قال: نعم فإن من تعلم الأحكام قبل العلم بالحاكم هلك وأهلك. انظر إلى العلماء من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يكرهون الولاية، كسيدنا على ابن أبى طالب رضي الله عنه حين ولاه رسول الله ﷺ المدينة فى غزوة تبوك، ومعاذ ابن جبل حين وَلاه رسول الله ﷺ اليمن، حرصاً على دوام مواجهة رسول الله ﷺ، وكأبى حنيفة الذى ضُرِبَ على الولاية فأباها، وابن أبى ليلى، وابن

جريج، ومالك بن أنس الذى ضُرِبَ وأوذى رضى الله عنهم أجمعين، لأنهم تعلموا الإيمان، ثم تعلموا القرآن ثم الأحكام.

وسأله آخر قائلاً: يا سيدى، إن أكثر العلماء الآن يهتمون بتحصيل علم الأحكام والأخبار والأقاصيص؟

فقال: أما الذين يتعلمون الأخبار فهم أهل الشهرة، لأنهم يحفظون الأحاديث باختلاف الروايات، ويعلمون التجريح والتعديل، حتى يكون لهم المنزلة العليا، وأما الذين يتعلمون الأقاصيص، فهم الذين يحبون أن يكونوا شيوخاً على العامة لينالوا حظهم، أما العلم الذى هو علم يطلبه أهل الصفا والوفا من خيرة عباد الله، فهو العلم بالله، والعلم بأيام الله، والعلم بآداب سلوك طريق الله تعالى، وهذا لا يقبل عليه إلا من سبقت لهم الحسنى من الله تعالى، لأنها عناية أزلية تجذب النفوس إلى ما خُلقت له، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب ٤١-٤٢، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ البقرة ٢٨٢، وقال ﷺ: (اعملوا فكُل مُيسر لما خلق له). وليس تحصيل الأحكام بعلم يقرب من الله تعالى، ولكنه يقرب من الملوك، ومن حصَّل العلم بالأحكام ولم يحصل العلم بالحاكم، كان ممن لم يجعل الله لهم نوراً، ولم تحصل التفرقة بين جماعة المسلمين، والخلاف بينهم، إلا ممن حصلوا العلم بالأحكام، ولم يهبهم الله تعالى العلم به سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ فاطر ٢٨.

بأىّ علم؟ قال: العلماء بالله تعالى، ولكن العلماء بالأحكام لا خشية فى قلوبهم من الله تعالى، وكيف تكون فى قلوبهم الخشية، وهم أسرع الناس منافسة فى الوظائف، والتقرب من الملوك والأمراء، والخوف من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومجاراة أهل الأهواء لا للمداراة ولكن للمداهنة؟، ولو أن الخشية من الله تعالى فى قلوبهم لرخصت الدنيا فى أعينهم، بل رخصت دماؤهم غيرة للحق، وإن نفساً واحداً فى تحصيل العلم بالله تعالى يقوى به اليقين، قوة تبذل به الحياة العزيزة غيرة للحق كما فعل سحرة فرعون الذين قالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ طه ٧٢، بعد أن ظهرت لهم آية من عجائب قدرة القادر سبحانه وتعالى، وهذا درس لم يتجاوز أنفاساً، كيف أنتج بذل الحياة محافظة على الأدب مع

الله سبحانه وتعالى؟! وقد فعل أكثر من ذلك أصحاب رسول الله ﷺ. فقد عُذب بلال وياسر وزوجته وابنه عمار فى الله تعالى، حتى قتلت أم عمار طعناً بالحربة فى فرجها غيرة لرسول الله ﷺ أن تسمع فيه ما تكره، ومات سيدنا ياسر وهو مولى من فادح العذاب. وكان ينجيه أن يدارى قريشاً، وكم عُذب فى الله رجال حتى فارقوا أوطانهم وأعراضهم وأموالهم، وأبت خشية الله التى فى قلوبهم أن يداروا، فإذا كان العلم بأحكام الله تعالى ينتج الخشية من الله تعالى لما رضى العلماء أن ينافسوا فى خدمة الملوك والأمراء، على ما هم عليه من البدع المضلة، والأهواء المضرة، وكيف يرضى العالم الذى يخشى الله تعالى أن يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، ويبيع الآخرة بالدنيا، ويرى معالم الله قد انتهكت، وحدود الله قد عُطلت، وشعائر الله قد استهين بها، وهو متلذذ بطعام شهى وثوب بهى وفراش وطى وخدم وحشم، يداهن الأمراء ويرضيهم فى غضب الله تعالى! وكيف يكون عالماً من يجعل العلم آلة لجمع الدنيا، أو يتعلم ليتولى رئاسة أو ولاية!.

سأل آخر فقال: يا سيدى العلم، أليس هؤلاء علماء؟ قال: لا ليسوا علماء، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن يكره، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب، وإنما هذه فنون صناعية كالصناعات الأخرى، يتحصل عليها المؤمن والكافر بصفته إنساناً.

أما العلم النافع فإنه فضل من الله تعالى، يهبه الله تعالى بالفضل لمن يشاء، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ الرحمن ١-٤، وإنى لا أحل قلباً إلا ولازمتنى الخشية، ولا ينالنى إنسان إلا وسبقتنى الرعاية، ولا يتحصل علىَّ طالب إلا وتكشفت له الدنيا عن حقيقتها، فرغب وتجافى بجانبه عنها، وسارع إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السماوات والأرض. والله الموفق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هو العلم لا يجلى بغير الحقائق ... وعلم بكشف فيه قرب لخالقى
وما العلم إلا ما يعلمه العلى ... وآى ﴿يُعَلِّمُكُمُ﴾ دليل لصادق
وما العلم والأعمال من غير خشية ... سوي آلة صماء سؤل المنافق
وفى أولِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ نور لمهتد ... بها ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ جذب الموافق
تبرأت من حولى وقولى وقوتى ... تحققت أن الله بالفضل رازقى

تبرأت من نفسى وكل جوارحى ... أنبت إلى ربى بإخلاص واثق
أيا علم يا حال وكل جوارحى ... ويا مال يا أولاد لستم مرافقى
أنيبوا معى أو فاتركونى فإننى ... تحققت أن الكون أحلام وامق
ومرارة دنياى بل غرارة ... وضرارة والعبد فى ليل غاسق
ففروا من الدنيا إلى الله سارعوا ... إلي الله من تلك الملاهى الخوارق
بنور رسول الله فاعتصموا ولا ... تميلوا إلى الأهواء ميلة مارق
حنانيك يا تواب تب وفقن لما ... تحب مسيئاً فى ظلام الشقائق
وجمله بالأحوال حال محمد ... وخلقه بالأخلاق أخلاق خالق
وطهره من غفلة من ضلالة ... وأعط الإحسان خير الرقائق
وأكرمه فى الأولاد فى كل أهله ... كما نال خيراً كل فرد وسابق

الأمراء هم المفتون

أول ما يجب على المسلم طلب العلم الذى لابد منه. فأول واجب طلب علم الإيمان، ويرغب فى تعليم أحكام الصلاة من السنة العاشرة من عمره، حتى إذا فرضت عليه الصلاة بالبلوغ فرضت عليه أحكام الصلاة، ويرغب فى تحصيل علم الصيام بعد العاشرة من عمره، حتى إذا بلغ فرض عليه تحصيل هذا العلم ليعمل به، ويفرض عليه تحصيل علم الحج إذا توفرت شروطه، وهكذا يتعين عليه تحصيل علم المعاشرة للزواج، ويرغب فى تعليمه قبل ذلك، فالمسلم لا يكمل إيمانه إذا جهل الضرورى من الدين مما لابُد لكل مسلم منه، علماً وعملاً، وما كان غير ضرورى فمنوط به الأمير مما تدعوا إليه المعاملة وسياسة المجتمع، ودوام الصفا بين جماعة المسلمين وأهل ذمتهم، وكبح جماح النفوس عن تعدى حدود الله تعالى، ورجوعها إلى الوسط.

كل ذلك يجب أن يقوم به الأمير، ويتعين على كل مسلم أن يرفعه إليه، فإن ذلك من أحكام الله وحدود شريعته، ومن تكلم فى هذا بين الناس، وأفتى فى مثل هذه الشئون ولم

يكن أميراً، وعلم به الأمير آخذه، ودام الأمر على ذلك إلى زمان عمر بن عبد العزيز ﷺ.

احتياج الأمـراء إلى المفتين

ولما تساهل الأمراء فى تحصيل ما هو فريضة عليهم، اضطروا إلى أن يعينوا لهم مُفتين، يرجعون إلى فتياهم، فكان الأمير يجلس وعلى يمينه مُفتٍ وعلى يساره مُفتٍ، وترفع إليه المسائل، وكان الأمراء من الصحابة رضى الله عنهم لا يمنعون من أفتى فى شأن من شئون الأحكام والحدود، ولكنهم يجلسون أمام العباد والعلماء بالله تعالى يسمعون منهم الحكمة والمعرفة، ويحثون نوابهم فى البلاد، وجماعة المسلمين على التقرب من أهل العبادة والزهد، حتى كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: أن اقتربوا من أفواه العباد والزهاد فإنه تُجلى لهم حقائق صادقة.

ولما أن احتاج الأمراء إلى المفتين، طلبوا إلى العلماء ورغبوهم، وكان العلماء رضى الله عنهم متمسكين بالحق، نظروا إلى الدنيا بعين الإيمان والعلم، كشف لهم العلم عن مبدئها ونهايتها ففروا من الأمراء.

دعا أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور أبا حنيفة وابن أبى ليلى وإياس ابن وبيضة ليوليهم، فأبى أبو حنيفة عليه، حتى أقسم أبو جعفر بالطلاق ليولينه، فلم يقبل أبو حنيفة، فضُرب بالسياط مراراً، حتى كادت روحه أن تزهق، وبعد ذلك ولاه أبو جعفر عداداً للَبِن (الطوب) فرضى أن يكون عداد طوب، ولم يرض أن يكون قاضى قضاة المسلمين فى ذلك العصر.

ثم أمر ابن أبى ليلى بقبول الولاية، فأقسم بالله العظيم ثلاثاً أنه لا يصلح لها، فإن كان صادقاً فى يمينه يولى أمير المؤمنين من لا يصلح، وإن كان كاذباً فأمير المؤمنين يولى كاذباً، واستعفاه فقبل منه.

وأمر إياس بن وبيضة بقبولها، فقال: يا أمير المؤمنين، إن ابن أبى ليلى تخلص من النار بيمين حنث يصوم لها ثلاثة أيام، فقال أمير المؤمنين: حيث فقهتها فأنت أولى بها منه، وولاه مُكرهاً، ثم نافس الناس فى الدنيا فتعلموا العلم للفتيا، فتشبهوا بالأمراء والملوك.

وإن المفتى هو أمير الأمراء، لأنه عليه أن يحكم وعليهم أن ينفذوا، لأنه عالم بأحكام الله

تعالى وحدوده، يخشى الله تعالى، ويخاف عذابه، ويرجو نعيمه أكثر من خوفه من الأمراء، فهو إنما يفتى بالحق ولو على نفسه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ النساء ١٣٥، وقال ﷺ: (قاضٍ فى الجنة وقاضيان فى النار). وقال ﷺ: (القُضاة ثلاثة: قاضٍ قضى بالحق وهو يعلم فذاك فى الجنة، وقاضٍ قضى بالجور وهو يعلم، أو قاضٍ بالجور وهو لا يعلم فهما فى النار).

المفتون والقضاة فى الصدر الأول

قام المفتون والقضاة فى الصدر الأول مع الأمراء قوامين لله بالحق، مثل الإمام أبى يوسف، والإمام يحى بن أكثم، وإياس بن وبيضة، وأهل زمانهم فى جميع الأمصار، يحكم المفتى والقاضى على الأمير فينفذ على نفسه حكمهم، طاعة لأمر الله.

رفع بعض الأعراب إلى قاضى المدينة المنورة ظلم أحد خلفاء بنى العباس بأخذ جمالهم ولم يدفعوا لهم ما عاهدوهم عليه من المال، فكتب القاضى إلى الخليفة: إن سُنة رسول الله ﷺ تدعوك لحق عليك، فتوجه رسول القاضى إلى الخليفة وهو واقف أمام روضة رسول الله ﷺ وناوله الورقة، فأقسم الخليفة فى نفسه أنه إن أراد القاضى بذلك الشهرة والفخر ليقتلنه، وإن أراد بذلك المساواة والعدالة ليرفعه، فتوجه إلى القاضى فلما وقف بين يديه نادى خصمه، وقال: أعط لهذا حقه، فسأله أمير المؤمنين عن حقه فَعَرفه، فاعترف به أمير المؤمنين، وطلب من القاضى أن يصبر عليه حتى يتوجه إلى داره، ويسلم خصمه حقه، فقال القاضى: لا تخرج من مجلسى هذا حتى تدفع ما عليك، وأمر خصمه بالجلوس وأمر الخليفة بالجلوس، فأرسل أمير المؤمنين من أحضر له المال، فلما أن سلمه للقاضى، وسلم القاضى المال للمدعى، أخرجه من المجلس، ثم قام على قدميه غاضاً بصره، وقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، وقبل يد الخليفة ووقف أمامه، فقال الخليفة: أكثر الله فى أمة محمد ﷺ من أمثالك.

ولما احتضر للموت الإمام أبو يوسف بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: لذنب عظيم أخافه. قيل: وما هو؟ قال: وقف أمامى أمير المؤمنين هارون وخصم له يهودى، فتمنيت بقلبى أن يكون الحق لأمير المؤمنين على اليهودى، فكان الحق لليهودى، فحكمت لأمير المؤمنين، فأنا أخاف من ذنبى هذا.

❊ ❊ ❊

المفتى فوق أمير المؤمنين

واستفتى أحد أمراء المؤمنين من آل عثمان الإمام أبا السعود مفتى دار الخلافة العظمى، فى أن يقهر الناس على الإسلام أو يقتلهم، وكانت السياسة تقتضى ذلك، حفظاً لجماعة المسلمين من الفتن، فأفتى بالحكم الشرعى ناهراً للخليفة ولجنده، فخضع الخليفة للمفتى طاعة لله ورسوله ﷺ، فكان المفتى فوق أمير المؤمنين أمراً ونهياً، ذلك لأنه قام لله بالقسط ناصراً لله ولرسوله ﷺ، موقناً بقول الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ محمد ٧.

هذه وظيفة المفتى للمجتمع الإسلامى، وإنما شرف الوظيفة بقدر شرف نفس القائم بها، وكم من مجد أضاعته قوس صغيرة، وكم من شرف أضاعته أطماع، وشتان بين نفس تعرف مقدار المجد فتبذل له ما يفنى محافظة عليه، وبين نفس تجهل يوم الحساب فلم تخف نقمة الله ولا عذاب.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الأنعام ١١٦، وقال تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ يونس ٧، وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ الجاثية ٣٤، وإنما يتعلم العلم للعمل، لا لبذل أو لنيل الحظوظ والأهواء، ومن ذكر الموت وما بعده فر من الرياسة والسيادة والمال، ولزم الفقراء ليفوز بخير المآل.

شتان بين مفتى الهدى ومفتى الردى

المفتى إما أن يكون نوراً ينفع الله به أهل عصره، بما يستبين به من الحق، وهو الذى يرى الحق فوق الخلق، فلا يخاف أميراً فى الله تعالى، ولا يخاف مجتمعاً فى جانب رسول الله ﷺ، فالأمة إن اجتمعت عليه لا يخافها، والأمراء وإن كرهوه لا يبالى بهم، ما دام مع الحق وللحق.

وإما أن يكون ظلمة يخفى معالم الحق، فيرضى الخلق ويغضب الحق، وهذا ضل وأضل، وهلك وأهلك، والأولى أن مثل هذا ينصحه العقلاء من الأمة، ستراً لحاله، خشية من أن التشنيع عليه يدعو إلى غضبه، والغضب يخرجه عن الاعتدال، وإنَّا جميعاً نحب الخير لكل مسلم، ولا عصمة إلا بالله، أى مسلم يرضى بمال يفنى، وجاه يزول، وسيادة تنمحى، ويذكره

أخوه المسلم بعذاب الله، وغضب رسول الله ﷺ يوم القيامة، والفضيحة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء ٨٨-٨٩، ولم يقبل؟ (لا أحد).

إن الإنسان بين طاعة ومعصية، كما بين صحة ومرض وفقر وغنى وعز وذل، ولعل المذنب اليوم يتوب غداً والله غفور رحيم، والذكرى تنفع المؤمنين، والله تعالى يرشدنا لخير الخيرين، ويدفع عنا الشر والضر.

* * *

الباب الرابع

طريق الصوفية فى المعرفة

معرفة الله تعالى

مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فصلت ٥٣، وقال الرسول ﷺ: (من عرف نفسه فقد عرف ربه). وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أين الله؟ فى الأرض أو فى السماء؟ قال: (فى قلوب عباده المؤمنين).

فخاصية الإنسان العلم والحكمة، وهو أشرف الأنواع وفيه كمال سعادته، وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال، فالبدن مركب للنفس، والنفس محل للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان، وحاجته التى لأجلها خلق، فخاصية الإنسان العلم بالله وصفاته وأفعاله، فكمال الإنسان معرفة حقائق الأشياء، وجملة عالم الملكوت والملك إذا أخذت دفعة واحدة، تسمى حضرة الربوبية، لأنها محيطة بكل الموجودات، إذ ليس فى الوجود شئ سوى الله تعالى وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلى من ذلك للقلب فهى الجنة، حسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله.

أما طرق المعرفة، فهى علوم تتحصل فى القلب فى بعض الأحوال، وهى تارة تهجم على القلب، أى تكون بطريق الإلهام، وتارة تأتى عن طريق الاستدلال والقياس والشهود،

وغيرها من طرق العلم فتكون مكتسبة، والقلب مستعد لأن تنجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها، لولا الحُجب التى تحجب عنه هذه الحقائق، وقد تهب ريح الألطاف، وتنكشف الحجب عن أعين القلوب، فينجلى فيها بعض ما هو مسطور فى اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة فى المنام، فيعلم به ما يكون فى المستقبل، ولكن ارتفاع الحجاب لا يتم إلا بالموت، كما يتجلى من قول على بن أبى طالب ﷺ وكرم الله وجهه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وهذه الحجب قد ترتفع أيضاً فى اليقظة، بلطف خفى من الله تعالى، فيلمع فى القلب من وراء سُتُر الغيب شئ من غرائب العلم، تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالى إلى حد ما، ودوام هذه الحال فى غاية الندور.

من ذلك ترى أن الصوفية لم يحرصوا على دراسة العلوم وتحصيلها طلباً للحقيقة، وإنما أخذوا أنفسهم بالرياضة الروحية والإقبال على الله، اعتقاداً منهم بأن ذلك هو طريق المعرفة.

والإجماع عندهم على أن الدليل على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم فى حاجة إلى الدليل، لأنه مُحدث، والمُحدث لا يدل إلا على مثله، وإذا سألتهم: ما الدليل على الله؟ قالوا: الله. فإن قلت: فما العقل؟ قالوا: عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية، فالعقل يجول حول الكون، فإذا نظر إلى المُكوِن ذاب. ومن لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات، ولولا أنه تعرف إليها بالألطاف لما أدركته من جهة الإثبات.

من رامه بالعقل مسترشداً طرحه فى حيرة يلهو
وشاب بالتلبيس أسراره يقول من حيرته هل هو

ولا يعرفه إلا من تعرف إليه، ولا يوحده إلا من توحد له، ولا يؤمن به إلا من تلطف له، ولا يصفه إلا من تجلى لسره، ولا يخلص له إلا من جذبه إليه، ولا يصلح له إلا من اصطنعه لنفسه، ومن تعرف إليه بمعنى من تعرف الله إليه، ومعنى من توحد له، أى أراه أنه واحد.

وتدل الآيات كلها على أن الله تعالى عرفنا نفسه بنفسه، فقام شاهد المُعَرف من المعرفة بالمعرفة بعد تعريف المُعَرِف بها.

ومعرفة الله تعالى وطاعته واجبة، بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل، خلافاً لقول المعتزلة، فإن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة، وهو محال، فإن العقل لا يوجب العبث، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض، وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود، وذلك محال فى حقه تعالى، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد، وهو أيضاً محال، لأنه لا غرض له فى الحال، بل يتعب به، وينصرف عن الشهوات بسببه، وليس فى المآل إلا الثواب والعقاب.

إن السبيل الموصلة لمعرفة الله، هى معرفة صفاته وأفعاله، وإن معرفة الله الحقة، مؤدية إلى أن تعرف أن " الله أكبر" ، وهذه المعرفة تصل بك إلى أن يكون رجاؤك فى الله وحده، وخوفك منه وحده وعملك له وحده، وهذا يصل بك إلى أعظم مرتبة من مراتب التوحيد، وتصل بك إلى هذه المرتبة العظيمة إلى ما هو أعظم منها، بأن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل شئ فى الوجود من الله وبالله ولله.

العارف

الصوفية لا يطلقون " العارف" إلا على من توالى عليه العلم بالله وصفاته، والنظر إلى مصنوعاته، وغلب عليه ذلك بحيث صار حالاً له، حتى من عرف الله كلَّ لسانه، أى شغلته معرفته به عن ذكر غيره، لأن من عرف الله لا يستغنى عن النظر فى عبادته، لوقوعها بحسب ما طلب، وهذا حق ولابد من دخوله قلبه، والشيطان عدو له لا يسكت عنه وذلك باطل، ولابد أن يدركه بقلبه ثم يتقيه. فقد حكى الله تعالى عن كعب بن مالك وأصحابه، لما تخلفوا عن غزوة تبوك، وهجروا، إلى أن نزل فيهم قرآن، أنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وذلك لمعرفتهم بالله وعظمة رسوله، وتخلفهم عن الجهاد مع رسوله، فكل من عرف الجليل لا يحتمل قلبه الاشتغال بغيره ولا البعد عنه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وسائل المعرفة

اختلف العلماء فى طريقة المعرفة، فمنهم من قال: إن معرفته تعالى بدليل العقل، ومن لا عقل له لا يعرف الله، وأنا أجاريهم فى قولهم وأسألهم: ما هو العقل عندكم؟ هل هو القوة التى بها تدبير المنزل ومجتمعه، وبه اختراع المصنوعات والغلبة بالسياسات وتحصيل الفنون؟ فإن قالوا: هو، أنكرت عليهم بالبرهان الناصع، لأن أكثر العقلاء من هذا النوع كفار بالله تعالى.

وإن قالوا: المراد بالعقل، العقل الذى يعقل عن الله تعالى، المعبر عنه فى القرآن الشريف بالنور، فى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ النور ٤٠، هذا العقل لا يحتاج فى معرفة الله إلى بحث ودليل، ولكنه يحتاج إلى مذكر له بالله تعالى وبأحكامه سبحانه وبأيامه جل جلاله، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات ٥٥.

وإنا لنرى أكثر العارفين بالله من الذين لا يهتمون بما يهتم به العقلاء من الزخارف، وعلى هذا فمعرفة الله تعالى فضل من الله تعالى، يتفضل به سبحانه على من يشاء من خلقه، وإن أكثر العارفين بالله تعالى هم من أهل التسليم، لا من أهل البحث والجدل، ولعل مولعاً بهذا الموضوع يظن أنى لا أحب طلب المعرفة، فأقول له: إن طلب المعرفة فريضة، قال ﷺ: (طلب العلم فريضة على كل مسلم). وقال ﷺ: (اطلب العلم ولو بالصين).

فالطلب شئ والبحث عن دليل شئ آخر، إنما يبحث عن الدليل الجاحد، وإنما يطلب المزيد الواجد، وإن حضرة الإلهية لم ينكرها الله تعالى مجوسى ولا صابئى ولا من أدنى منهم، لأن الإنسان حيوان دينى بالفطرة، وإنما المجهول طريق الوصول إليه وحقيقة الأدب له، وعلم ما يجبه من العبد من عقيدة وعبادة وقصود وإخلاص وصدق نية، ولا سبيل إلى العلم بتلك الحقائق إلا بالله تعالى، وقد بعث الرسل مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرُسُل.

❊ ❊ ❊

مراتب المعرفة

العرفان من تفريق ونقص وترك، مُمْعِن فى جمع صفات الحق للذات المريدة بالصدق منه إلى الواحد، ثم وقوف، ومن آثر العرفان للعرفان فقد قال "بالثانى"، ومن وجد العرفان كأنه لا يجده، بل يجد المعروف به فقد خاض لجة الوصول، وهناك درجات ليست أقل مما ذكرنا، تجدها مفصلة فى كتاب "مقامات الصوفية"، على أننا هنا نؤثر الاختصار، فإن العبارة لا تشرحها والكلام لا يوضحها ولا يجعلها مفهومة، اللهم إلا من شرب من العين وسبقت له الحسنى وبصره اليوم حديد.

والحق أن الخيال مع خطورته، قد يكشف المقصود لمن صحبوا العارفين، ومن أحب أن يعرفها، فليتدرج فى هذه المنازل إلى أن يصير من أهل المشاهدة بعين المشافهة، ومن الواصلين إلى العين دون الساعين للأثر، فإنهم ولا شك. فقد جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا واجد مُصطلِم مؤهل للوراثة، وهكذا دواليك واحد بعد واحد، فلذلك كان ما يشتمل عليه هذا العلم، ضحكة للمغفل عبرة للمحصل، ومن سمعه فاشمأز منه فليتهم نفسه أو عقله، لعلها لا يتناسب معهما، وكل مُيسر لما خلق له.

مجاهدة العارفين

قد يمسك العارف عن الغذاء مدة طويلة، ويدل عليه وجهان إجماليان، ووجه تفصيلى.

الأول: أن البدن قد يبقى وقت المرض أياماً طويلة بدون غذاء.

الثانى: أن شغول القلب بهم شديد، أو خوف عظيم قد تمر به الأيام ولا يتذكر الغذاء.

وأما التفصيلى: وهو أن النفس إذا اشتد انجذابها إلى العالم العقلى صار ذلك عائقاً لها عن تدبير البدن، فوقفت الأفعال الطبيعية المنسوبة إلى النفس النباتية، وكان الواقع من التحلل ههنا دون الواقع فى المرض، وكيف لا، والمرض الحار مسقط للقوة، وتتحلل بحرارته أجزاء المادة، وكثرة حركاته مضعفة للقوة، محللة للمادة، أما ههنا مقوية للقوة، وغير محللة للحرارة، وسكونه البدنى يقوى القوة، ولا يحلل المادة.

فالعارف أولى بعدم الحاجة للغذاء، وإن تناوله فهو ليقوى سفينة الروح وهو الجسد، على أمواج الروح وشعشعان المواجهة اللامع، من إشعاعات القدس فى محيطه الكونى، تجلياً بالأسماء، فكيف إذا كان من الذات!

وقد يطيق العارف فعلاً أو تحريكاً، يخرج عن وسع مثله، والسبب فيه أن الإنسان يكون له حال اعتداله قدر من القوة، ثم يعرض لنفسه خوف أو حزن فيعجز عنه، وقد يعرض له هيئة مقوية، فيقدر على أضعاف ما كان قادراً عليه حالة اعتداله، لما يعرض له فى الغضب أو المنافسة أو الفرح أو الطرب. فلا عجب لو عنت للعارف هزة كما يعرض عند الفرح أو غشيته عزة كما يغشى عند المنافسة فازدادت قوته، بل هذا يكون أعظم مما يكون عند الطرب والغضب، وكيف لا، وذلك بصريح الحق، ومبدأ القوى، وأصل الرحمة!

العارف قد يخبر عن الغيب، ويدل على إمكانه وجوه إجمالية. أحدهما: لما رأينا الإنسان قد يعرف الغيب حال المنام، لم يبعد أن يقع مثله فى اليقظة، كما هو مدون فى سير الأولياء الصالحين. وثانيهما: حصول ذلك لكثير بيننا فى اليقظة، وحادثة عمر(يا سارية الجبل) وغيرها. وثالثها: أن الحوادث الأرضية مستندة إلى الحركات السماوية المستندة إلى النفس التى هى عالمة بالكليات والجزئيات، فتلك النفس هى السبب لهذه الحوادث الأرضية، فليلزم من علمها بذاتها علمها بجميع هذه الحوادث، لما ثبت أن العلم بالسبب يقتضى العلم بالمسبب، ثم دلنا على أن النفس الناطقة جوهر مجرد، لها أن تنتقش بما فى العالم النفسانى من النفس بحسب الاستعداد وزوال الحائل، فلا يبعد أن يكون بعض الغيب ينتقش فيه من ذلك العالم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الزاهد والعابد والعارف

المُعرض عن متاع الدنيا هو الزاهد، والمواظب على العبادات هو العابد، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً شروق نور الحق فى سره هو العارف.

وقد يتركب بعض هذا من بعض، الزهد عند غير العارف معاملة، كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة، وعند العارف تنزه عما يشغل سره عن الحق، والعبادة عند غير العارف

معاملة، كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة، وعند العارف رياضة لهممه وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليحررها بالتعويد عن جانب الغرور إلى جناب الحق، فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يتجلى له الحق لا تنازعه، فيخلص السر إلى الشروق الساطع، ويصير ذلك ملكة مستقرة، كلما شاء السر اطلع على نور الحق، غير مزاحم من الهمم، بل تتفجر له العيون، فينهل ويكون بكليته منخرطاً فى سلك القدس، بعد التجريد والفناء والمحو والإثبات والتنزيه.

العارف يريد الحق سبحانه لا لشئ غيره، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه، ويعبده له سبحانه فقط، ولأنه مستحق للعبادة، ولأنها نسبه الشريف إليه، لا لرغبة أو رهبة، وإن كانتا، فيكون المرهب منه والمرغوب فيه هو المطلوب، وعند ذلك يكون الحق ليس الغاية بل الواسطة، وهو دون مراتب العارفين، وعلى كُلٍ، فالمستحل وسط الحق معذور من وجه، فإنه لم يطعم لذة البهجة الإلهية فيستطعمها، إنما معارفه مع اللذات المخدجة (الناقصة)، وقد جن إليها وهو غافل عما وراءها، وما مثله بالقياس إلى العارفين، إلا مثل الصبيان بالقياس إلى المحنكين، فإنهم كما غفلوا عن طيبات يحرص عليها البالغون، واقتصرت بهم المباشرة على طيبات اللعب، وصاروا يتعجبون من أهل الجد إزوراراً عنها، عائقين لها، عاكفين على غيرها، كذلك من غض بصره عن مطالعته بهجة الحق، أغلق كفيه بما يليه من اللذات، فتركها فى دنياه عن كره، وما تركها إلا وهو يستأجل أضعافها، والمستبصر بهداية القدس فى شجون الإيثار، قد عرف اللذة الحقة، وولى وجهه سمتها، مترحماً على هذا المأخوذ عن رشده إلى ضده، وإن كان ما يتوخاه بكده مبذولاً له بحسب وعده.

درجات حركات همم العارفين

أول درجات حركات العارفين الإرادة، وهى الرغبة فى اعتلاق العروة الوثقى، فيتحرك سره إلى القدس لينال من روح الاتصال، ثم إنه يحتاج إلى الرياضة، والرياضة موجهة إلى ثلاثة أغراض:

أولاً تنحية ما دون الحق عن الإيثار، ويُعين عليه الزهد الحقيقى.

ثانياً تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة، لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسى، فتصرفه عن التوهمات للواقع السفلى، ويعين عليه أشياء: العبارة المشفوعة بالفكرة، ثم ألحان الحكمة المستخدمة لقوى النفس، الموقعة لما يمر بها من الإلهام موقع القول من الأوهام، ثم نفثات الوعظ من العارف الذكى، بعبارة بليغة ونغمة رخيمة وسمت رشيد.

ثالثاً تلطيف السر للتنبيه، ويعين عليه الفكر اللطيف والعشق العفيف، الذى تأمر فيه شمائل المعشوق لا سلطان الشهوة.

فإذا بلغت الرياضة حداً ما، عنت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه، يلتذ بها كأنها بروق من لوامع الحق، تومض ثم تختفى رحمة به، وهى المسماة أوقاتاً، وكل وقت يكتنفه وجدان، وجد له ووجد عليه، ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض، فكلما لمح شيئاً عاج منه إلى جناب القدس، فيكاد يرى الحق فى كل شئ، ولعله إلى هذا الحق تستعلى عليه غواشيه، ويزول هو عن سكينته، وينتبه جليسه لاستيفازه عن قراره، فإذا طالت الرياضة لم تستفزه غاشية، وهدى للتلبيس فيه، ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة، فيصير المخطوف مألوفاً والوميض شهاباً بيناً، ويحصل له مفارقة مستقرة كأنها صحبة مستمرة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفاً، ولعله إلى هذا الحد يظهر عليه ما به، فإذا تغلغل فى هذه المفارقة قل ظهوره، فكان وهو غائب حاضراً وهو ظاعن مقيماً، ولعله إلى هذا الحد تتسنى له المفارقة أحياناً، ثم يتدرج إلى أن تكون له متى شاء، ثم إنه ليتقدم هذه الرتبة فلا يتوقف أمره على مشيئته، بل كلما لاحظ شيئاً عبره، وإن لم تكن ملاحظته للاعتبار فيسنح له تصريح من عالم الخلق إلى عالم الحق، مستقر ويتحف حوله الغافلون، ثم إذا وصل إلى المقصود صار سره مرآة مجلوة، فحازى بها شطر الحق ودرت عليه اللذات الروحية، وفرح بنفسه لما بها من أثر الحق، فكان له نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه، وكان بعد متردداً، ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس، وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة وهناك يحق الوصول، وعندها الالتفات إلى ما تنزه عنه شغل، والاعتداد بما طوع النفس عجز، والتبجح بزينة اللذات من حيث هى لذات وإن كان بالحق تيه، والإقبال بالكلية على الحق خلاص.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ذكر العارفين

العارف من كان قلبه قبلة للسانه، والذاكر من استشعر حياء العبودية وهيبة الربوبية عند ذكره.

إذا علمت أن الله تعالى يعلم سر قلبك، ويرى ظاهر فعلك ويسمع نجوى خواطرك، فاجتهد أن تغسل قلبك بالأحزان وتوقد فيه نار الخوف منه، حتى يزول حجاب الغفلة عن قلبك، وعندها يكون ذكرك به مع ذكره لك. قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة ١٥٢، ثم اعلم أن ذكر الله أكبر، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥.

ذلك لأن ذكره لك وهو غنى عنك، وذكرك له وأنت مفتقر إليه، عند ذلك يحصل الاطمئنان، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ الرعد ٢٨، فتتحصل على ميزتين فى الذكر: اطمئنان القلب فى ذكر الله، ووجلك منه سبحانه فى حال الذكر، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال ٢.

والذكر هنا إما ذاكر ذكراً خالصاً بموافقة اللسان للقلب، حتى لا تقع العين على غير الله، وإما ذكر أوصاف لفناء الهمة عن الذكر، قال ﷺ: (سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

العارفون لهم مقام راق ... لم يدركن بالعقل والأحداقِ
شهدوا جمال الله بالعين التى ... وهبت لهم من منعم خلاقِ
أهل الشهود هم الهداة قد ... جملوا بالحب والأخلاقِ
أسرارهم وهبت لهم من ربهم ... والمصطفى الهادى لروى ساق
أهل العزائم أنجم قد أشرقت ... بالعلم والأحوال فى الآفاقِ
الشرع مشربهم ووجه حبيبهم ... فى "حيثما" كالشمس فى الإشراقِ
أهل العزائم نورهم من ربهم ... فازوا بحب الله والأشواقِ

أحـــواهـم فـــوق العقـــول لأنهـم	شربـــوا الـــطهــــور بـمـنـعـم رزاقِ
من لحـظـة يـرقـى المـريـد مشـاهـداً	أنـــوار خـير الـــرسل بـــالإشفـــاقِ
خـصـــوا بحب المـصـطفـــى وبقـــربه	بـــشرى لهـم بـمـعـيـــــة الخلاق
كم من مـــريــد شـاهـــد الـــوجه العلى	بـــالــــروح صرفـــاً فى مقـــام راقِ
بـالمصـطفـى نلنـا الـصفـا بـشرى لـنـا	قـــــد لاح لـلأرواح فى الآفـــــاقِ

* * *

الباب الخامس

فى الذكر وأنواعه وروابطه

أنواع الذكر

ولما أن تفضل علينا سبحانه بهذا الفضل العظيم، فجعلنا من أمة من فضله على جميع الرسل، وأزال عنا الحرج والضيق، وتفضل سبحانه فنادانا نداء القريب بقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ الأحزاب ٤١-٤٤.

الذكر إما بالقلب وهو الذكرى، وإما باللسان وهو الذكر بكسر الذال أو بضمها، فالذكر بالقلب أوله تذكر آلاء الله تعالى ومشاهدة نعمه، ثم رعاية أحكامه شرعاً وقدراً، ثم مراقبة جلاله وعزته وعظمته، ثم مشاهدة أنوار صفاته، ثم الأدب بكمال الاتحاد برسول الله ﷺ تشبهاً به على قدر الاستطاعة، تحصيلاً للعلم بالله من الراسخين فيه، ومجاهدة للنفس، ثم الفناء عن الذكر بالمذكور سبحانه وتعالى وذكره للعبد، وبعد هذا المقام مقامات جلت عن أن تكشفها العبارة أو تلوح إليها الإشارة، من الإشراف على قدس العزة والجبروت، ومن مواجهة العلى ومن الاصطلام بعد الفناء عن المقام والذكر باللسان.

والاسم منه ذكر، بكسر الذال أو بضمها، إما ترجمة عن القلب شهوداً وهو مواجيد القلوب التى تترجمها الألسنة، بياناً لآيات الجمال والجلال والبهاء والضياء والنور الربانى، والاسم منه ذكرى أو تكرير جملة تامة كقول "لا إله إلا الله" مع رعاية المعنى، وهو ذكر أهل الرعاية أو تكريرها من غير فهم وهو ذكر المبتدئين، وهو لحفظ الوقت من الغفلة، وخير الذكر قراءة القرآن فى الصلاة، ثم تلاوته فى غيرها مع التدبر.

أما تكرير اسم من أسماء الله تعالى، فإن كان الذاكر يلاحظ تمام الجملة بقلبه، بأن يقول بلسانه: "الله" ويلاحظ أحد أو صمد أو معط أو وهاب أو تواب، فهو ذكر بحسب الرعاية، وإن ذكر الاسم من غير رعاية، فهو ذكر للتواجد، فقد يحصل له الوجد وقد لا يحصل وقد يكون التواجد بحسب المقدم من الإخوان، وقد استحسن جماعة السماع فيه وكرهه آخرون حتى تزكوا نفوس الذاكرين، فيحسن سماع الحكمة بالصوت الحسن، فقد يحصل الوجد بعد التواجد فينتقل الذاكر من غفلة إلى حضور، وينتقل من تواجد إلى وجد، وقد يرفعه الله تعالى من الوجد إلى الوجود.

تحديد مقدار وميقات الأحكام الشرعية إلا الذكر

إن الله سبحانه ما أمر بعمل من الخير إلا عده وحده، فأمر بالصلاة معدودة ومحدودة، وأمر بصيام شهر، وأمر بالحج عند الاستطاعة مرة فى العمر، وأمر بزكاة المال فى كل سنة مرة وقدر ذلك، وأمر بالجهاد بشروط مخصوصة، ثم بين الذكر، فأمرنا به مطلقاً فى كل أحوالنا وشؤوننا، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ آل عمران ١٩١، وقال سبحانه: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ الأحزاب ٤١، فنحن مطالبون بالذكر بعدد الأنفاس واللحظات، وقد شنع الله تعالى على أهل الغفلة والنسيان، وعلى الصامتين من غير تدبر ولا اعتبار.

الذكر الكثير

معلوم أن الجوارح المجترحة ثمان معلومات، فمن ذكر باللسان وترك الذكر بغيره قصر، فالذكر الكثير ذكر جميع الجوارح، وذكر اللسان الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة

الحسنة، وتلاوة القرآن والنصيحة والإصلاح وتذكير الخلق أيام الله تعالى، وقد بينت هذا الموضوع مستوفى فيما سبق من الكتب.

ولما أن أمرنا سبحانه بالذكر الكثير، خص نوعاً من أنواع الذكر، ليبين لنا سبحانه وتعالى خصوصيته، فقال سبحانه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب ٤٢، والتسبيح بكرة صلاة الصبح، وأصيلاً صلاة العصر، وهما الفرضان الثقيلان على أهل الغفلة، وجائز أن يكون المعنى إذا ذكرت القلوب بالذكرى، فأشرق القلب بنور الحضور مع المذكور سبحانه فسبحوا الله، أى قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تنزيها لله وعلواً له سبحانه وثناء عليه، لأنه سبحانه تفضل على العبد بالحضور وأكرمه بالشهود، وقول: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ لا يمنع عمارة جميع الأوقات بالتسبيح، لأن ذكر الطرفين بعين الوسط.

الجواذب إلى الذكر

يجذب إلى الذكر الحب، وليس أحد أولى من الحب إلا الله تعالى، ولا أحق بأن يذكر إلا هو سبحانه؛ لأنه سبحانه هو الذى تفضل علينا بالإيجاد والإمداد، فكل ما لابُد لنا منه مما به قوام حياتنا وحفظ عافيتنا منه سبحانه فضلاً، ولو أننا نظرنا بالفكرة فى أنفسنا وفى الآفاق، لتحققنا أن صرف جميع أنفاسنا فى ذكره قليل، فى جناب نفس نتنفسه، فكيف إذا ساحت أنفسنا فى فسيح ملكوته، فتحققنا أنه سبحانه هو الذى خلقنا من العدم فى أحسن تقويم، وسخر لنا ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه، ومنحنا الإيمان به ووفقنا لما يحبه ويرضاه، ولديها نرى طاعتنا نعمة يجب علينا بها الشكر له سبحانه، فلا يسعنا إلا العجز عن حقوق شكره وذكره.

آداب الذكر

الذاكر جليس الله تعالى، قال ﷺ: قال الله تعالى: (أنا جليس الذاكرين). والمسلم لا يجهل الأدب اللازم لكل جليس، فمن أنواع الذكر ما تجب فيه الطهارة الجسمانية كالصلاة، وقراءة القرآن والطواف بالكعبة، ومنه ما تستحب فيه الطهارة كالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير، ومنه ما لا تجب فيه الطهارة، فإن الله طالبنا بالذكر فى كل أوقاتنا وأحوالنا، كذكره

سبحانه وتعالى عند مقتضيات الشئون، فمن الذاكرين من لا يغفل نَفَساً، فيكون بين ذاكر بقلبه ولسانه وجوارحه، أو ذاكر بقلبه فقط، فيستغرق أنفاسه بين سياحة ملكوتية، أو إشراف على قدس رب البرية، أو تذكر آيات الله فى نفسه وفى الآفاق، أو شهود جماله فى مظاهره الجلية.

روابط الذكر

الذاكر إما آنس بالمذكور سبحانه على بساط المؤانسة، أو حاضر القلب معه سبحانه بالذكرى، أو غائب عن الخلق فراراً إلى الحق، أو مبتهج بالفكرة فى جماله العلى، أو مرتل لكلامه سبحانه بالحضور مع المخاطبة والتدبر فى خلوته، أو مكرر اسمه العلى بلسانه ترجمة عن قلبه. وهذه الأنواع من الذكر لابد لها من رابطة قلبية، تربط الذاكر بالمرشد الكامل، الذى هو صورة رسول الله فى كل زمان، وتلك الرابطة هى سر الوصول إلى الله تعالى ورسوله ﷺ. ومتى حُرم القلب معنى من تلك المعانى، فالواجب على المسلم أن يسارع إلى طبيب القلوب العالم الربانى، ليعالجه حتى تعود صحته الروحانية، فإن فقد الطبيب وجب عليه مجاهدة نفسه بالمحافظة على آداب الشريعة التى لا تخفى على مسلم، ولا يرتبط إلا بمن كان مستقيماً. قال ﷺ: (اتقوا أئمتكم فإنهم رسلكم فيما بينكم وبين ربكم).

وقد انتشر الأدعياء فى هذا الزمن، فترى المدعى يجهل نفسه ويطيع حسه ولا يعلم الضرورى من الدين، ويتقن ما به يخدع المسلمين، وهو وسيلة الشيطان، فعلى السالك أن يطلب العلم ولو بالصين، فإن أطباء القلوب قليلون، وإن تساهل المسلم فى كل شئ فلا يتساهل فى نجاة نفسه بالبحث عن المرشد الكامل.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ الأحزاب ٤٣، وقوله تعالى: ﴿يُصَلِّى﴾ بلفظ الفعل المضارع بُشرى لنا جماعة المسلمين أن صلاته سبحانه دائمة مستمرة فى كل زمان، مهما تعاقبت الدهور وتوالت العصور، فأهل الإيمان بالله الذاكرون الله كثيراً فى معية رسول الله ﷺ من بدء الرسالة إلى يوم القيامة، لم يغب عنهم ﷺ نفساً، ولو غابوا عنه لاحترقوا، وهم نور الله ورحمته لجماعة المسلمين فى كل زمان ومكان، والصورة الكاملة لرسول الله ﷺ فى كل عصر وأوان. والصلاة من الله تعالى

تنزله جل جلاله بالتواب والعفو والغفور والقريب والمجيب والولى والمنعم والمتفضل، وغيرها من أسماء الجمال والحفظ والسلامة، وصلاة الملائكة استغفارهم لنا ودعاؤهم لنا بالخير والمغفرة، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ غافر ٧. وتنزلهم بالإلهام والبشائر لنا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه من البشائر ما فى ﴿يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ والإخراج أنواع: يخرج سبحانه من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، ومن المعاصى إلى الطاعات، ومن الجهل إلى العلم، ومن العلم إلى الذوق، ومن الذوق إلى الشهود، ومن الشهود بعين اليقين إلى حق اليقين، ومنه إلى المقامات التى لا يشار إليها إلى حيث الفرار مما سوى الله ومن سواه إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ الأحزاب ٤٣، أى: ثبتت رحمته من البدء بالمؤمنين، ودامت لهم إلى أبد الآبدين، والمؤمنين هم الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى بتصديق رسوله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ الأحزاب ٤٤، والتحية من الحياة، أى أحياهم بتحيته سبحانه إيهام منه لهم فى سلامة حياة الأنس به فى المواجهة على بساط المنادمة وهم المقربون. أو تحيتهم من الملائكة عند الله تعالى، بُشرى بسلامتهم حتى من العتاب بالفوز بالحياة الدائمة، فى بساتين الفردوس والمسرات الباقية، وهم الأبرار أهل اليمين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمًا﴾ الأحزاب ٤٤، فقوله ﴿وَأَعَدَّ﴾ أى: أن هذا الأجر موجود الآن، فثبت وجود الجنة بهذه الآية، والأجر الكريم هو الجلوس على منابر من نور أمام وجه الله تعالى للمقربين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، أو التصريف المطلق فى جنة الفردوس، بحجة قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ق ٣٥، للأبرار. والأجر الكريم هو الخير العظيم الذى يكرم من ناله أعظم الإكرام.

إذا ذكرنا به لاح الضيا العالى ... والذكر يجذبنا منا إلى الوالى
الذكر راح طهور فيه يذكرنا ... رب قريب مجيب حال إيصال
مولاى تذكرنا فى الذكر تشهدنا ... وجهاً جميلاً يرينا غيب إجمال

يـا ذكـر أشهـدتنـا الغيب المصون أرى روض الجـمال بـحـلي أو بـتـرحــال

الـوجه واجهنـى فى الـذكـر غيبنـى عـن رتـبـتـي أولاً مـن طـين صلـصــال

يــا ذكــر أنت مــدام الــروح بهجتهــا جملـتـنـي بـــالمعـــاني نلـت آمـــالى

قـــد كـنـت فى غفلــة أيقـظتـنـى حتــى شهــدت جمــال المنعم العــالى

تـرجمت عن غـامض الأسرار أظهـرهـا للعــاملين وللجهـــال أمـثـــالى

خل الملام فــــإن الله مقــتـــدر يعـطـى الـولايـة للـسـاري وللتـالى

قـــد أكــرم الله أهل العجــز علـمهـم أسرار تــوحـيــده بــالحــال والقــال

الــذكـــر نـــور من المــذكــور يمنحه أهل المحـبـــة مـن فـــازوا بــإقـبــال

الـذكـر يـا إخـوتـى من سـابق الحسنى إن تــذكـــروا الله يـــذكـــركـم مع الآل

الـذكـر مـا الـذكـر جـذاب لحضرة من لنــا تجلى بحــان الــذكــر فى الحــال

إنــا ذكـــرنـــاك فـــاذكـرنــا وأشهــدنــا جمــال وجهك بــالإحــســان يـــا وال

❊ ❊ ❊

الباب السادس

عبارات أئمة الصوفية فى التوحيد

التوحيد هو تمييز الحادث من القديم

يروى أن الجنيد قال: التوحيد هو فرق القديم من الحادث فى الوقت، أعنى: أنه لا يلزمك اعتبار القديم أن يكون محلاً للحادث، ولا الحادث أن يكون محلاً للقديم، ويلزمك أن تعرف أن الله قديم، وأنك حادث وأنه لا شئ منك متصل به، وأن لا شئ من صفاته ممزوج بك، وأنه لا جنسية بين القديم والحادث.

هذا الرأى مضاد لمذهب من قال بقدم الروح، فإذا اعتقدنا أن القديم نزل إلى الحادث، أو

أن الحادث اتصل بالقديم، لم يبق برهان على قدم الله، وعلى وجود الكون، وهذا يذهب بنا إلى مذهب الدهريين، ففى كل أعمال الحادث براهين ناطقة على توحيد الله وآيات دالة على قهر الله، وعلامات توضح قدمه سبحانه، ولكن الناس شديدوا الغفلة فى الرغبة فيه وحده أو الاكتفاء بذكره.

التفريد والتوحيد

قال الحسين منصور الحلاج: أول قدم فى التوحيد هو فناء التفريد، لأن التفريد هو النطق بأن الواحد انفصل عن الآفاق، بينما التوحيد هو إثبات وحدة الشئ لذلك، ففى الفردانية لا يمكن إثبات شئ غير الله، وهذه الصفة ربما تنطبق على ما هو غيره، لكن فى الوحدانية لا يمكن إثبات غيره، والوحدانية ربما لا تكون لشئ غيره، لذلك فأول قدم فى التوحيد هو إنكار شريك الله، ونفى المزاج؛ لأن المزاج فى طريق الله هو بحثك عن الطريق بسراج.

أصول علم التوحيد

قال الحصرى: أصولنا فى التوحيد خمسة: إزالة الحدث، وإثبات القدم، وهجر العادة، والعزلة عن الإخوان، ونسيان ما هو معلوم وغير معلوم.

فإزالة الحدث تشتمل على إنكار أن الحادث له اتصال بالتوحيد، أو أن الحادث يمكنه أن يصل إلى حقيقته المقدسة.

وإثبات القدم هو فى كمال اعتقادك بوجود الله، وكما بينت لك سابقاً فى قول الجنيد.

وهجر العادة للسالكين بُعد عن ملاهى النفس الدنية ورسوم هذه الدنيا، وللكاملين بُعد عن المقامات والأحوال والكرامات.

والعزلة عن الإخوان أعنى به الابتعاد عن الاجتماع بالناس، والتوجه إلى الاجتماع بالله، حيث إن الفكر فى كل ما هو غير الله حجاب ونقص، وكلما حصر الإنسان فكره فى الاجتماع بغير الحق، كلما ازداد حجاباً عنه؛ لأنه من المتفق عليه أن التوحيد هو جمع الهمم، بينما أن الاكتفاء بغير الله هو علامة على تفرقة الهمم.

ونسيان الأشياء المعلومة والغير معلومة يعنى به توحيد ذلك الشئ؛ لأن التوحيد ينكر ما يثبته علم الناس، وكل ما أثبته جهلهم به ليس إلا بخلاف ما يعلمون؛ لأن الجهل ليس توحيداً، ومعرفة حقيقة التوحيد لا يمكن نيلها بدون إنكار التصرف الشخصى، والذى يتكون منه المعرفة والجهل.

قال بعضهم: بينما كان الحصرى يتكلم فى مجمع، غفلت عيناى فرأيت وأنا نائم أن ملكين نزلا من السماء وصارا يستمعان لمذاكرته، فقال أحدهما للآخر: كل ما يقوله هذا الرجل هو علم التوحيد ليس بعين التوحيد، فلما استيقظت إذا بالحصرى يعبر عن التوحيد، فنظر إلىَّ وقال: يا فلان من المستحيل أن نتكلم على التوحيد إلا علماً.

التوحيد هو فناء صفات الآدمية

يروى أن الجنيد قال: التوحيد أن يكون الإنسان كشخص بين يدى الله، تجرى عليه أحكامه كما شاء فى سابق علمه، وأن يكون الإنسان غارقاً فى بحار التوحيد فانياً عن نفسه، وميتاً فى دعاء الناس له وإجابتهم إليه، مستغرقاً بحقيقة التوحيد فى معنى القرب، مفقوداً عن نفسه وحواسه؛ لأن الله يقوم فيه بما أراده له، حتى تكون آخر أحواله أولها، ويعود إلى ما كان عليه ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الأنبياء ١٠٤، كل ذلك يعنى أن المُوحد ليس له مراد دون مراد الله فى توحيد الله، لا اعتبار لوجوده حتى يكون ذرة كما كان فى ماضى قدمه، حيث ظهرت دلائل التوحيد، وأجاب الله عنه السؤال الذى سأله نفسه، وهذه الذرة كانت محل كلامه، مثل هذا الإنسان لا يأنس به الناس حتى يدعوه إلى أى شئ وليس له صحبة مع أى إنسان حتى يجيب دعوتهم.

هذا القول يشير على فناء الصفات الآدمية، وكمال التسليم لله فى الحالة التى يكون فيها الإنسان مغلوباً بكشف جلال الله، وبذلك يكون الإنسان آلة مسخرة ومادة لطيفة لا تشعر بأى شئ، ويكون جسده خزانة لأسرار الله تعالى، تنسب إليه أقواله وأحكامه، غير صاغ إلى أى شئ غيره، باقياً تحت أحكام الشرع إلى النهاية، وذلك لتأييد برهان الله سبحانه وتعالى وهذا مصدقاً لعمل رسول الله ﷺ حينما أراد فى ليلة المعراج ـ عندما أسرى به إلى مقام القرب ـ أن تمحى رسوم جسمه الشريف وتذوب شخصيته، لكن سبحانه وتعالى أراد أن

يثبت برهانه، فأمر رسوله أن يبقى فى الحالة التى كان عليها، وبذلك تقوى جسمه الشريف، وشاهد وجود الله سبحانه وتعالى من وجوده العدمى، فقال: (إنى لست كأحدكم إنى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى). وكما قال ﷺ: (أنا مع ربى فى حال لا يقدر عليه الكروبيون والأنبياء والمرسلون).

الذات تُعرف بالعلم ولا تُدرك

يروى أن سهل بن عبد الله قال: التوحيد هو أن تشهد أن ذات الله إنما تعرف بالعلم، وأنها لا تدرك ولا تشهد للعين فى هذه الدنيا، ولكنها موجودة بحقيقة الإيمان، غير محدودة ولا مدركة ولا تحل الأشياء، وأنه يُرى فى الدار الآخرة ظاهراً وباطناً فى ملكه وسلطانه، وأن الناس محجوبون عن معرفة حقيقة ذاته، وأن قلوبهم تعرفه وأن عقولهم لا تصل إليه، وأن المؤمنين يشاهدون جماله بعيونهم الروحانية بدون إدراك حقيقته. هذا القول يشمل كل أصول التوحيد.

العجز عن الإدراك إدراك

قال الجنيد: إن أعلى كلمة فى التوحيد هى ما قالها أبو بكر رضي الله عنه: (سبحان الله الذى لم يتعرف إلى خلقه بأى وسيلة إلا بالعجز عن معرفته)، وقد أخطأ كثيرون فيما عنى به سيدنا أبو بكر فى هذه الكلمات، وظنوا أن العجز فى نيل المعرفة هو كالقول بأنه لا بينة ولا مناقضة لوجود إله واحد، وهذا خطأ محض لأن العجز يشير إلى حالة موجودة وليس إلى حالة معدومة، مثال ذلك الإنسان الميت ليس غير مؤهل للحياة، لكنه لا يكون حياً فى حال موته، والإنسان الأعمى ليس غير مؤهل للنظر، لكنه لا يرى فى حال عمائه، كذلك فالعارف ليس غير مؤهل للمعرفة، ما دامت المعرفة موجودة؛ لأنه فى هذه الحالة تشبه معرفته النظر العقلى، فقول أبى بكر يمكن أن يتصل بمذهب أبى سهل الصعلوكى وأبى على الدقاق، الذين يثبتون أن المعرفة تنال فى أول الأمر حتى تكون فى النهاية بديهية. صاحب المعرفة الضرورية يصير مضطراً، أو غير قادر على تركها أو استقرابها لنفسه، وبناء على قول سيدنا أبى بكر رضي الله عنه فالتوحيد هو حكم الله فى قلوب عباده.

التوحيد يحجب الموحد عن جمال الوحدة

قال الشبلى: التوحيد يحجب الموحد عن جمال الوحدة؛ لأنه يقال: إن التوحيد هو حكم الإنسان وحكم الإنسان لا يكون كشفاً لجمال الله، وفى حقيقة الكشف يكون الشئ الذى لا يوجب الكشف حجاباً، الإنسان بكل أوصافه هو غير عن الله لأنه إذا كانت كل صفاته ربانية كان هو ربانياً، وبذلك يكون الموحد والتوحيد، فإذا مَنَعت الطالب لله أى صفة من فناء نفسه فى التوحيد، فهو محجوب بتلك الصفة، وطالما يكون محجوباً ليس بموحد، لأن كل ما خلا الله فهو باطل، هذا فقه " لا إله إلا الله" ، هذا وقد عنى أهل المعرفة بتوضيح واسع العبارات التى يعرف بها التوحيد، فبعضهم قال: إنه فناء لا يمكن الوصول إليه حقيقة إلا بوجود الصفات. والبعض قال: إنه لا توجد نسب أبداً إلا الفناء. وموضوع الجمع والفرق يمكن أن يطبق فى هذا الموضوع حتى يُفهم.

التوحيد عند الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم

ولا شك عندى أن التوحيد هو سر يُكاشف الله به عباده، وأنه لا يمكن التعبير عنه بكلام، وأنه أدق من أن يشار إليه بأكمل العبارات، وكل ما قرره المشايخ من العبارات والاصطلاحات وكل من استعملها، هو غير عن الله، وإثبات ما هو غير عن الله فى التوحيد هو إثبات للشرك.

مشهد التوحيد معراج الوصال ... بدؤه الإشراق والختم اتصال
والفرار من المقامات التى ... سترتنى عن كبير متعال
مشهد التوحيد فى حال الصفا ... قد محا الحجب وأفياء الظلال
وحدة الأفعال بدء سلوكه ... نيل حسن الحال بل حسن المآل
ثم تفريدى له فى قصده ... والتجلى لى به حال فحال
بعد هذا مشهد لمشاهد ... فيه توحيدى بقاء لا زوال
بعد هذا أخبت القلب فلا ... يشهد الرسم بعين أو مثال
تنمحي آثاره بضيائه ... دكت الطور وأصعقت الرجال
والتجلي ستر الآيات عن ... كل قلب مطمئن بالجمال

بعـــــدهـــــا مجلى الـكـال ولا أنـــــا	شـمـــس قـــدس قـــد يلـــوح بلا زوال
وجهه يجلى لـــــروحـــــى جهـــــرةً	بـــالـيقـين الحق لا رمـــز الخـيـــال
بــــالـتـنـــــزل فى مقـــام الاجـتلا	وى أنـــا فى الـــرسم أم رسمـــى محـــال
إن أكــن فى الـــــرسـم كـيف أرى به	ذا عجيـب حـــالـتـــى فــوق المقـــال
فى محيط الكـون يـظهـرنـى الـضيـا	أيـن كـونـــى فى اتحـــادى والـــوصـــال
كـــونـــى المـــرآة فـيهـــا صـــورة	سـترتهــــا بــــالجمال المـتـــــوال
بـــالجمال اسـتغـــرقت حتـــى بـــدا	ظـــاهـــرا للعين مـن غـير انفـصـــال
مـن أنـــا والـــوجه حـــولى نـــوره	سـتر الآثـــــار مـن قـبل انـتقـــال
يـــا ضـيـــاء مـــشرقـــاً فى وجهتـــى	فـيك إحـــرامـــى لـــدى أرض الحلال
والفـــرار إلـيك منـــى بغـيـتـــى	والحجـــاب الـبعـــد فـــاتحـــة الجـــدال
سلمـــى يـــا نفـــس تلقـــى رفعـــة	تـــدخلين القـــدس فى حلل الـــوصـــال

❊ ❊ ❊

الباب السابع

عقيدة الصوفية فى الإيمان

تعريف الإيمان

قال رسول الله ﷺ: (الإيمان بالله وملائكته وكتبه).

الإيمان اصطلاحاً هو التصديق، أما بخصوص أصوله المطابقة للشرع الشريف فله مواضيع هامة واعتراضات كبرى، فالمعتزلة يتمسكون بأن الإيمان يشتمل على أعمال العبادة ـ علمى وعملى ـ ولذلك فإنهم يقولون: إن المعصية تُخرج الإنسان من دائرة الإيمان، وكذلك الخارجة الذين ينسبون الإنسان إلى الكفر على عمل معصية، وهم على مثل هذا الزعم، والبعض يثبتون أن الإيمان الإقرار، ليس إلا إقراراً قولياً. والبعض يقولون عنه: إنه ليس إلا معرفة الله تعالى. وبعض أهل السنة يثبتون أنه هو التحقيق بعينه. وقد كتبت كتاباً خاصاً

بهذا الموضوع، ولكن مقصدى هنا أن أشرح عقيدة الصوفية فيه، فهم ينقسمون فى هذا الموضوع كما انقسم فيه الشرعيون من أهل هاتين الطبقتين.

عقيدة الصوفية

أولاً عقيدة الفريق الأول: فبعضهم مثل الفضيل بن عياض، وبشر الحافى، وخير النساج، وسمنون المحب، وأبو حمزة البغدادى، ومحمد بن جرجيرى، وكثيرون من غيرهم يقولون: إن الإيمان هو إقرار لفظى، وتحقيق وأعمال.

ثانياً عقيدة الفريق الثانى من الصوفية: لكن غيرهم مثل إبراهيم بن أدهم، وذو النون المصرى، وأبو يزيد البسطامى، وأبو سليمان الدارانى، والحارس المحاسبى، والجنيد، وسهل ابن عبد الله التسترى، وشقيق البلخى، وحاتم الأصم، ومحمد بن الفضيل البلخى، وكثيرون غيرهم يقولون بأن الإيمان إقرار لفظى وتحقيق.

عقيدة الشرعيين

وبعض المتشرعين مثل مالك والشافعى وأحمد بن حنبل، متمسكون بالرأى الأول، بينما أبو حنيفة وحسين بن فضل البلخى وأتباع أبو حنيفة مثل محمد بن الحسن، وداود الطائى وأبو يوسف يؤيدون القول الثانى.

والاختلاف بينهم لفظى محض، وخلو من المعنى، وسأوضح لك ذلك حتى لا يتهم إنسان بخروجه عن محجة الإيمان، لتمسكه برأى دون آخر.

إثبات أن الاختلاف بين الفريقين لفظى محض

اعلم أن جماعة المسلمين والصوفية متفقون على أن الإيمان له أصل وفرع، والأصل هو التحقيق فى القلب، والفرع هو ملاحظة الأمر، والعرب يستعملون فيما بينهم اسم الأصل للفرع بطريق الاستعارة، كقولهم عن ضوء الشمس أنه الشمس، وبهذا المعنى، فأهل الطبقة الأولى المذكورة آنفاً، يطبقون اسم الإيمان على الطاعة التى يحفظ بها الإنسان نفسه من العقاب الآجل، فالعقيدة مع عدم أداء الأوامر الربانية لا يوجب الإيمان، وحيث إن الإيمان

هو مبنى على الطاعة، وأن الطاعة مع العقيدة والإقرار القولى هما سبب النجاة، وليست الطاعة، فهم يقولون: الطاعة لا معنى لها بدون المعرفة، وأن العارف الذى ينقصه الطاعة سيكون من الناجين، ولو أنه يكون مرتكناً على إرادة الله، إن شاء عفا عنه بفضله وبشفاعة رسوله، أو عوقب على قدر معصيته، ويخرج من النار إلى الجنة، وحيث إن أهل المعرفة مع معصيتهم لا يدخلون فى النار بسبب معرفتهم، بينما الكادحون بغير معرفة لا يدخلون الجنة، ظهر فى هذا أن الطاعة ليست سبباً للنجاة وقد قال رسول الله ﷺ: (لن يدخل الجنة أحدكم بعمله).

إجماع المسلمين على الإيمان

الحقيقة التى لا جدال فيها بين المسلمين، هى أن الإيمان هو المعرفة والإقرار وقبول الأعمال.

فكل من عرف الله يعرفه بأحد صفاته، وأكمل صفاته سبحانه على ثلاثة أنواع: أوصاف متصلة بجماله وجلاله وكماله. فكماله لا يناله إلا من ثبت كمالهم وانتفى نقصهم، وبقى أهل الجمال والجلال، فمن كان برهانه فى معرفته جمال الله تعالى فهم المؤهلون لمشاهدته، ومن كان برهانهم هو جلاله فأولئك هم الذين يبغضون صفاتهم، وانعقدت قلوبهم على الرغبة، أما الشوق فهو ثمر العشق أو المحبة، وكذلك كره الصفات الآدمية، لأن رفع الحجاب عن الصفات الآدمية هو عين حقيقة المحبة، لذلك فالإيمان والمعرفة هنا المحبة والطاعة علامة عليها. كل من أنكر ذلك أهمل أحكام الله تعالى، ولا علم له بالمعرفة، وهذا الخطأ منتشر بين طُلاب الصوفية فى عصرنا هذا، وبعض أهل الإلحاد ممن شاهدوا كمال أحوالهم يجاورونهم فى هذه الدرجة العالية ويقلدونهم فيها، ويقولون: إن التكاليف تكون قبل التعريف، فإذا وصلت إلى معرفته تحولت عنك التكاليف الجسمانية للطاعة، ولكنهم مخطئون.

لكنى أقول إنك متى عرفته امتلأ قلبك بالشوق والوله، وصار حكمه فى نظرك أَجَل مما كان قبلاً، وإنى أقر بأن الإنسان التَقِى يبلغ درجة يتخلص بها من عناء التكليف، وذلك بنمو التوفيق الإلهى، حتى يؤدى ما هو تعب للغير بلا تعب لنفسه، لكن هذه النتيجة لا يمكن أن يتحصل عليها بغير الشوق المحرق الذى ينتج الوله.

الفرق بين مذاهب الجبر والاختيار والحشوية وبين مذهب التوحيد

والبعض يقولون: إن الإيمان إنما يأتى بالكلية عن الله، والبعض يقولون: إنه إنما يصدر عن الإنسان، وهذا كان لجدال كبير حدث بين أهل ما بين النهرين، فإثبات أن الإيمان إنما يأتى كلية عن الله هو القول بالجبر، لأنه يثبت أن الإنسان ليس له اختيار، ومن قال بأنه يصدر من الإنسان فإن ذلك اختيارى، لأن الإنسان لا يعرف الله تعالى إلا بالعلم الذى يمنحه إياه، ومذهب التوحيد هو أقل من الجبر، وأرقى من الاختيار، **والأولى أن يقال:** إن الإيمان حقيقة هو عمل الإنسان مصحوباً بتوفيق الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الأنعام ١٢٥، وعلى هذا الأصل، فالميل للاعتقاد هو توفيق الله تعالى، أما الاعتقاد فهو عمل الإنسان، وعلامات الاعتقاد هى فى القلب، وذلك بشدة تمسكه للتوحيد، وفى العين بامتناعها عن المحرم نظراً، والنظر بإمعان فى الآيات وفى الأذن بسماع كلمته، وفى البطن بخلوها من المحرم شرعاً، وفى اللسان بالتصديق. هذا ومن قال بأن الإيمان يصدر عن الله تعالى يثبت بأن المعرفة والإيمان قد يزيد وينقص الذى أجمع على بطلانه أكمل، لأنه لو كان حقاً، لكان موضوع المعرفة محلاً للنقصان والزيادة، وعلى ذلك فالزيادة والنقصان يلزم أن تكونا فى الفرع الذى هو الحكم، والمتفق عليه عاماً هو أن الطاعة قد تزيد وتنقص، وهذا لا يسر الحشوية الذين يقلدون أهل الفرقتين المذكورتين آنفاً، لأن بعضهم يتمسكون بأن الطاعة هى أصل الإيمان، وبعضهم يقول: الإيمان هو إقرار قولى ليس إلا، وكلا المذهبين خطأ.

الإيمان عند الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم

وبالاختصار فالإيمان هو حقيقة اشتغال الأوصاف الآدمية فى طلب الله، ويلزم كل مؤمن أن يقر بهذا. سلطان المعرفة يقوى على صفة الشرك، وأين وجد الإيمان ذهب الشرك؛ لأنه كما قيل: لا فائدة فى سراج إذا طلع الفجر. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ النمل ٣٤، لأن المعرفة إذا تسطرت فى قلب العارف، اندرست معالم دول الشك والرأى والشرك، وتسيطر سلطان المعرفة على حواسّه وهواه، حتى يجعلها فى طاعته، فيكون فى كل نظره وفعله وقوله محفوظاً بحصون السنة.

قرأت أنه لما سئل إبراهيم الخواص عن حقيقة الإيمان أجاب: لا يحضرنى جواب على هذا السؤال الآن؛ لأن كل ما أقول ليس إلا تعبيراً، وإنه يلزمنى أن أجيب عنه بأعمالى، ولكنى مسافر لمكة، فاصحبنى حتى أجيبك عليه، قال الروای: فقبلت منه ذلك، وكان فى طول سفرنا فى الصحراء يأتينا كل يوم برغيفين وقدحين من الماء، فيعطينى إحداهما ويأخذ الآخر لنفسه، فذات يوم رأيت رجلاً كبير السن اقترب منا، ثم نزل وتكلم مع إبراهيم لحظة من الزمان، ثم تركنا. فسألت إبراهيم أن يخبرنى من هو؟ فقال: هذا هو جواب سؤالك، فقلت له : كيف ذاك؟ فقال: ذاك الخضر طلب منى أن يصحبنى، لكنى رفضت ذلك مخافة أنى فى صحبته أتكل عليه دون الله، وبذلك ينقص توكلى عليه، فحقيقة الإيمان هو التوكل على الله تعالى.

والحقيقة أن الإيمان هو اعتقاد القلب فى العلم الذى يأتى من الغيب، لأن الإيمان هو فيما هو غائب، وإنما ينال بأن يقوى الله تعالى اليقين فى عبده، الذى هو نتيجة المعرفة المفاضة عليه من الله تعالى، ويلزمنى الآن أن أرجع إلى مسائل المعاملات مبيناً مصاعبها.

سلب الوجود حقيقة الإيمان ... وشهوده هو رتبة الإحسان
وشهود أنك هو يقينا فاعتقد ... واعلم يقينا صحة البرهان
وإذا شهدت جمال حسنك ظاهرا ... فافنى الشهود ومل إلى الديان
واسمع خطابك منك فى مجلى البها ... وانظر إذا فتحت لك العينان
وانهض على قدم الشريعة ظاهرا ... واسمع لذيذ حلاوة القرآن
واعلم بأنك صرت عرش صفاته ... والعرش مجلى مظهر الرحمن
واجلس على كرسى الهوية معلناً ... بظهور نور الحق للأعيان
ناد بأنك واحد أحد ولا ... تنس فتكتب فى ربى الإنسان
ودع الشهود لدار عدن إن بدا ... لك حسنه فى رتبة الإمكان
قل لا أريد سواك بل أنا أنت يا ... هوت الهوية فى علو الشان
قد شمت منك مظاهراً وتحققت ... نفسى يقيناً عند نفس جنانى
وشربت من يد قبضة الأنوار ما ... أحيا فؤادى بعد كشف الران

الباب الثامن

مذهب الصوفية فى المحافظة على الحكمة

لكل مقام مقال

لا عصمة إلا لرسول الله ﷺ، ومن لم يأتم به هلك وأهلك، ومع أنه ﷺ كانت أحواله وأقوله وأعماله هى خالص المحبة الروحانية والسكينة الإلهية، فإنه ﷺ كان يسير بالمسلمين على ضعفائهم، ليبين لنا سبل السير إلى الله سبحانه وتعالى، فكان ﷺ يجلس المجلس العام لبيان الأحكام والمعاملات والإسلام، ثم يجلس المجلس الخاص مع جميع أهل الصُفة لبيان الأحوال والأخلاق وتزكية النفوس، ثم يجلس المجلس الأخص مع أفراد اصطفاهم له ﷺ، ممن أمره الله سبحانه وتعالى بأن يصبر نفسه ﷺ معهم، فيتكلم معهم فى مقامات التوحيد ومنازلات اليقين، ولذلك فإنك ترى الأمة أجمعت على النظر فى أسانيد كلامه ﷺ، واشترط الرجال شروطاً للسنن، ولم يقبلوا أحاديث كثيرة لم تصح عندهم بطريق مطابق لشروطهم، مع صحة المتن حقاً وصحة السند، وإن لم يقبل عندهم، وأكثر الأحاديث الإفرادية التى وردت عمن لا شهرة لهم بين الصحابة، ممن اقتطفتهم المحبة واختطفهم الشوق إلى الله تعالى. ولرجال الحديث العذر فيما أنكروه، لأنه لا ينبغى أن يباح للعامة حفظاً للقوى العقلية، ومن تصفح الكتب الست، يظهر له تفاوت منزلتها بين الأمة بقدر حيطة أصحابها رضى الله عنهم والتشديد فى الشروط، وأكثر الأحاديث المتضمنة لغوامض التوحيد مما أخذ به الرجال لا شهرة لها بين أهل الحديث، حفظاً لأسرار الحق أن تذاع.

لا لوم على المقهور

كان الرجال رضى الله عنهم فى بدايتهم وقوة أحوالهم عليهم قد يقهرهم الوجد، إلى أن يظهروا أحوالهم أمام من ليسوا أهلاً لها، مع حسن النية وسلامة السريرة وحسن الظن بالخلق، فإذا ترقوا عن مقاماتهم إلى مقامات العين أو الحق فى اليقين والتحقيق فى التمكين، ظهر لهم سوء عملهم فندموا وتابوا إلى الله، ثم تلوح لهم من لوامع سر القدر، ما أجراه الله تعالى بسابق حكمته على أيدى رسله، مما أضل به كثيراً وهدى به كثيراً، فيرجعون إلى الله فى

الأمر كله، وفى هذا أمر الإشارة فى قول موسى عليه السلام، أن يضل بها من شاء ويهدى بها من شاء. ويحتاطون للحكمة ضناً بها أن تكون مشرعة للسالكين أو طريقاً للواردين، وحفظاً لها أن تتناولها أيدى الجهلاء المغرورين، ولكن بعد ماذا وهى سنة ماضية! ولا عصمة إلا لرسول الله ﷺ، وقد سبق فى الأزل أن يتلقى الحكمة غير أهلها ليكونوا أبواباً للهاوية يهوى بهم فى نار البعد، من سجل عليهم القضاء بالضلالة.

أعوذ بوجهه الكريم لا عذر لهم حقاً فى إباحتها ولو قهرهم حالهم، والواجب على كل مسلم أن يردهم عن إباحة الحكمة لغير أهلها، ولكن الرجال فى بدايتهم اختطفتهم يد العناية، وجذبهم الحق حتى جمعهم عليه، فكان معالم بين أعينهم والناس فى غفلة، وإنما يتبعهم أهل التسليم ممن لم تحجبهم حظوظ وأهواء.

مفاتيح أبواب الردى

هؤلاء الذين يجتمعون على أهل المقامات العلية تحصل منهم المضرة على غيرهم، لأنهم يجعلون الحكمة سبيلاً إلى ظهورهم بين الخلق، فيبيحونها لغير أهلها، طمعاً فيما لا مطمع فيه، وبهم المضرة، وقد قدر الله ذلك فى ذات رسله، فإن موسى السامرى قبض قبضة من أثر الرسول، فاستعمل مشاهد الأرواح للأشباح، حتى ضل وأضل ونسى التنزيه، وجذب قلوب أمة معهم رسول من أولى العزم ورسول كريم، فمالوا معه وعبدوا العجل وخالفوا سيدنا هارون عليه السلام، وكذلك بلعام بن باعوراء، الذى آتاه الله آيات الحكمة فكفر واستعملها فى إضلال الناس وأخلد إلى الأرض، وقد شرح القرآن الكريم أخبارهما، وكم أفسد جماعات من المسلمين بما تلقوه من الحكمة عمن تلقوها، ذلك لأن العلماء والربانين، يهب الله لهم نوراً تلوح به سيما الخلق، فلا يبيحون سراً من أسرار الحكمة إلا لأهله، وأما غيرهم ممن جهلوا قدر الحكمة وجهلوا قدر النفوس وتفاوتها، لا يبالى أحدهم أن يبيح من أسرار الحكمة لغير أهلها، مهما بلغ ذلك، وذلك لأنه لو كوشف بحقائق تلك الإسرار، لبخل بها أن تسمعها أذناه، ولا ينتفع أحد بتلك الأسرار العلية إلا من سمعها من فم العالم الربانى.

❊ ❊ ❊

مفاتيح أبواب الهدى

إن أنوار الحق تشرق على القلب قبل نطق العارف، لأنها تصدر من قلبه مُجملة بالإخلاص لوجه الله ونجاة الخلق وجمعهم على الحق، ومن أين لغيره – ونفسه تعسة، وحظه وبئ، وهواه قاهره، أن يبيح الحكمة، ولو لأهلها، فإنه إن أباحها ولو لأهلها، سبقت ظلمات حظه، ونيران هواه، إلى قلب السامع، فإن قبل فسد القلب، وإن أنكر أنكر الحق، ولذلك فعشاق العلم بالله سوَّاحون فى الأرض، يلتمسون العالم الربانى أين كان، فإذا أنسوا منه بالمعرفة حقاً، والاقتباس من مشكاة الأنوار، كانوا معه كما قال الصحابى ﷺ: من حفظنى آية من كتاب الله أو روى لى حديثاً من كلام رسول الله، كنت له عبداً.

أكرر التنبيه على إخوانى أن من سمع منهم الحكمة يجتهد أن يكمل بها نفسه، ويبخل بها أن يبيحها لأحد ما دام الرجل حياً بين ظهرانيهم، حتى ينتفع الناس بالحكمة حقاً، فإذا مات الرجل يجب عليهم أن يطووا هذا البساط إلا ما سمعوه منه أو ما رووه عنه، خشية من أن يتكلم فى العلم الإلهى بلا كشف وبيان فإنه مزالق الإقدام، ولا أحظر عليهم أن يديموا مذاكرة الحكمة وأن يكثروا من مطالعة كتبها، حتى تنفجر ينابيعها من القلوب بفضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

عنى اسمعوا تعقلون من الكلام ... فالعلم بالرحمن من صافى المدام
والعلم بالله العلى غوامض ... لم يفقهن إلا لصب فى اصطلام
خذ ما صفا لك من إشارة عارف ... فالعارفون كلامهم يشفى السقام
سلم أحاديث الحقائق تسلمن ... تسقى شراب الحب فى أعلى مقام
فالواصلون رأوا جمالاً ظاهراً ... قد أخرج النساك فى ظل الظلام
دارت عليهم خمرة الحب التى ... قد ووجهوا فيها بوهاب سلام
فروا إلى الله العلى بهمة ... حتى رأوا نور الجميل ولا لثام
فى البدء واجههم تعالى ربنا ... فى الختم أولاهم جمال الاعتصام
ساروا سراعاً للولى وفارقوا ... دنيا وأخرى فى اصطلام فى هيام
لم تشغلنهم دار فردوس ولا ... روضات عدن وحور أو خيام

لمـــــا رأوا وجه العلى تهـيـمـــــوا	غـابـوا عن الجنـات عن أعلى مقـام
وجه الجـمـيل الحق جل مــــرادهـم	حـــال العـبــــادة فى صلاة فى صيـــام
صـــوب الجـمـيع الـــوجه جل مـنـــزهـــاً	أخفـــى الكـيـــان بــدا لـنـــا فـــوق الغـمام
مــــولاي قـــــربـنــــا اقتراب قـــرابـــة	نحيــا بهـــا نعـطـــى المحبـــة والمــرام
هبنـــا العنـــايـــة والـــولايـــة والعـطـــا	فــضلاً بـــإحــســــان من البر الـــسلام
أكـــرم بـنـــــى وخلـتـــــى وتـــولـنـــــى	مـــولاى بـــالفـضل العـظـيـم على الـــدوام

الشريعة حصن السالكين

الشريعة حصن السالكين وروض الواصلين وجمال الأفراد المحبوبين، فليلزم كل أخ ظاهر الشرع، وليعلمه، فإنه أمان من الله، وسبيل القرب منه جل جلاله. وقد جهل كثير من السالكين سبل الوصول إلى الله تعالى فأهملوا الأعمال البدنية وظنوا أنهم يحسنون صنعاً، وهى الهاوية التى قادهم إليها الشيطان الرجيم، لأن الصراط المضروب بين الحق والخلق هو قول رسول الله ﷺ وعمله ﷺ وحاله ﷺ، يقول ﷺ: (الشريعة أقوالى، والطريقة أعمالى، والحقيقة أحوالى). فمن لم يسمع قوله ويعمل بعمله ﷺ ويتحلى بحاله فهو ناكب عن الصراط المستقيم، سالك وراء الشيطان الرجيم، لأنه ﷺ الرحمة العامة ونعمة الله العظمى، وقد أمرنا الله تعالى فى كل يوم أن نسأله حُسن اتباعه أربعاً وثلاثين مرة، فإن الله فرض علينا سبع عشرة ركعة فى اليوم، وسن لنا رسول الله ﷺ سبع عشرة ركعة، نقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب، فنقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة ٦.

فلو أن الله تعالى استجاب لنا وقبل منا لهدانا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ولكنا إذا أهملنا الأعمال البدنية كان ذلك دليلاً على سخط الله وغضبه، وأنه لما أهمل الأعمال البدنية ضل عن صراطه المستقيم، وكيف لا وقد كره أن يواجهه بوجهه الجميل فى مقام الصلاة! وكره سبحانه وتعالى أن يوفقه لما وفق له أئمة الهدى، نعوذ بالله من لمة الشيطان الرجيم.

❊ ❊ ❊

الأعمال البدنية نتائج الأعمال القلبية

الأعمال البدنية نتائج الأعمال القلبية، فمتى واجه القلب إلهاً عظيماً كبيراً، وريباً مُنعماً قهاراً تحقق بأنه عبد له سبحانه وتعالى، فسارع إلى التلذذ بالقيام بحقوق العبودية، فإذا رده الله تعالى حرمه المعونة، سر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، وقد تقدم لى أن الاستعانة وسيلة والعبادة مقصد والوسيلة تُقَدم على المقصد، ولكنه جل جلاله قدم المقصد على الوسيلة فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة ٥، لينبه القلوب لسر ما خلقهم لأجله، وإلى الحكمة التى أبدعهم لأجلها.

هذا ولا أزال أقول: إن مقام الاصطلام المحق والوجد السابق، والجمع على الحقيقة الذى يهدم أركان البشرية ويطفئ نار الآدمية، لا يلام صاحبه، فإنه غاب عن نفسه وحسه، إنما أتكلم مع المتكلفين الأدعياء، الذين يميزون بين الحار والبارد، وبين الفضة والذهب، وبين الطعام الشهى وغيره، ثم يهملون أعمال الأبدان، إن هؤلاء شياطين مردة، وهم أضر على المسلمين من إبليس الرجيم، لا لوم على من اقتطعه واختطفه أنوار بوارق العزة، فاستوى معه الموت والحياة والعافية والسقم، وصارت المرأة الحسنة والحجر سواء، هذا مخطوف العناية لا يأنس بغير ربه ففر من نفسه، فكيف يأنس بغيره! وليس هذا فى نظر الرجال بكامل، فإن فوق هذه المشاهد مشاهد مقامات القرب، ومكاشفات منازلات القريب، وإشراق أنوار إله عظيم كبير على قلب عبد ذليل منكسر خاشع، وموارد هنية من طهور يسقيه الرب جل جلاله سر قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الإنسان ٢١، وحل عليه من ميراث خير البرية، وهو مقام الفرد الكامل العبد المتحقق بالعبودية، محل نظر الله من خلق الله، المتجمل بكل معانى أهل معية رسول الله ﷺ، وقد أطلت الكلام فى السماع لمساس الحاجة إليه.

والله أسأل أن يلهم إخوتى المؤمنين الصواب فى القول والعمل والحال والاعتقاد، إنه مجيب الدعاء رب العالمين.

وإن من الناس طائفة يعبدون الله بألسنتهم ويعبدون الدنيا بقلوبهم، وهم المراءون، وهؤلاء أضل ممن سبق ذكرهم، لأن السالك قد يُقلد مرشداً مصطلماً يحمل قلبه بأنوار

الشوق، ولكن هؤلاء الذين يعبدون الله بألسنتهم، ويعبدون الدنيا بقلوبهم، عظموا الخلق وحقروا الحق ولا عذر لهم، وقد شنع الله عليهم فى القرآن فى أعظم آياته، وجعلهم أنواعاً، وهؤلاء يفضحهم الله تعالى فى الدنيا، أعاذنى الله تعالى من شرورهم، فترى الرجل منهم كثير العبادة كثير الذكر كثير الصيام كثير الخلوة، ينتسب إلى ولى من أولياء الله لينال غرضاً فانياً، فإن ظفر بغرضه لازم العبادة، وإن لم يظفر انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة وهو الذى شنع الله عليه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ الحج ١١.

سبل إلى الحق للمطلوب قد وضحت ... هى التجريد فيها آية ظهرت
منها الجهاد جهاد النفس مبدؤها ... بالحق للحق عن حظ وما أملت
والأنس بالله لا بالخلق حال صفا ... فؤاده من حظوظ فيه قد ثبتت
يلاحظن سر أسماء مقدسة ... ومقتضاها شئون غيبها كشفت
يرى الشئون عن الأسما فيؤنسه ... شهوده مولاه والآثار قد خفيت
فى كل شئ يرى معنى تنزله ... ومقتضى الحظ والأهواء به حجبت
طوراً يرى حسن مولاه وآونة ... يرى جلال جميل شمسه طلعت
لا يشغلن بجمال عن مواجهة ... عن الجلال إذا ما روحه نظرت
له مقامات رهب عن تمكنه ... ورغبة إن ستائر وجهه رفعت
قوامه رهبوت من جلالته ... ومن صفا رغب نعموت قد مزجت
وبسط بمولاه مشغول ومشهده ... أفق به آية التنزيه قد نسخت
فؤاده عرش أسماء مقدسة ... ولبه اللوح محفوظ به كتبت
تراه بالكون مشغول وباطنه ... له الحقائق بالإلهام قد علمت
مع المكون بالسر الجلى على ... مناهج للهدى والحق قد شرعت

الباب التاسع

مشاهد الصوفية فى حكمة تقدير المعاصى

قدر المعاصى سبحانه ليجمل عباده المطلوبين بما يحبه منهم

لا أشك أن من يقرأ هذا العنوان تنزعج نفسه، ولكنى على يقين أنه لا يلبث إلا ريثما يطالعه فيفقه ما أريد، ويشكر الله سبحانه وتعالى على خفىٍّ لطفه بمن سبقت لهم الحسنى، وعلىٍّ عظيم فضله عليهم، حتى فى تقدير وقوع المعاصى منهم. سبحانه ليس كمثله شئ فى ذاته، ولا فى أسمائه، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله، وصدق رسول الله ﷺ فى قوله: (إن الله لا يمكر بطالبه). وفى قوله ﷺ: (يد المؤمن فى يد الله كلما وقع أقامه). وفى قوله ﷺ: (إن الله ليغفر للعبد بالذنب يذنبه). وإليك تفصيل ما أجملت لك فى العنوان.

مشاهد أهل المعاصى ممن سبقت لهم الحسنى

إن للسالك فى سيره نشوة شهود آيات التجليات، ومزيداً من علم اليقين فى بيان حكم الكائنات، وعلماً بنفسه، وجمالاً يظهر له فيها بما بذله من نفيس وقته، ونفائس أمواله، مجاهدة فى ذات الله، فإذا أشرقت عليه تلك الجمالات النفسانية، نظر إلى الناس وإلى نفسه فقهر حاله، إلى أن يرى نفسه محسناً، وأنه خير من غيره، وتلك لبسة عن لمة من القوة البشرية بالقلب، وهذه اللبسة تحجبه عن التحقيق بمشاهدة القدرة والحكمة، فقدر الله عليه المعصية أزلاً، ليشهد من مشاهد القرب، ويذوق من طهور الحب، ويتجمل بحُلل العبادة فالعبودية فالعبودة، ويرقى إلى مقامات اليقين بعد التلوين، وحصون التمكين بعد التخلية، والشفاء من الداء الدفين، وللمعاصى مشاهد عن مقامات علية، لا يبلغها السالك إلا بارتكاب تلك الدنية، حتى تتضاءل نفسه فى نظره، ويصغر فى عينه، ويعلم قدرها فيصفو مورده ويحلو مشهده، ولينال السالك المسترشد شميم هذا العبير، ورشف هذا الطهور، أبين لك حكمة تقدير المعاصى على من سبقت لهم الحسنى والمشاهد العلية التى يبلغونها بارتكابها، لتعلم قدر منة الله تعالى عليهم، وخفى ألطافه بهم، وجميل عنايته سبحانه، لتعلم أن الله جل جلاله لا يقدر على من يحب إلا ما به يكون محبوباً فى مآله، والمقاصد تبرر

الوسائل، وإليك بيان ذلك، بينت لك أنى أكتب مشاهد أهل المعاصى، ممن سبقت لهم الحُسنى وهم أهل الاستقامة الذين يرفعهم الله تعالى بالوقوع فى المعاصى من حضيض الغفلة والغرور والفرح بما أوتوا، ويشفهم سبحانه وتعالى بها من أمراض النفوس، ويطهرهم بها من لقسها.

مشاهد أهل المعاصى ممن سبقت لهم السوءى

لا أحب أن أطيل عليك بذكر مشاهد أهل المعاصى، ممن سبقت لهم السوءى، فإن نفوسهم إما بهيمية، وهم الذين تهمهم العاجلة، ولا يؤمنون بيوم الحساب، وهم أشبه بالكلاب، وإن كانوا علماء بظاهر الحياة الدنيا، وقد شبههم الله تعالى بالكلاب، قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ الأعراف ١٧٥-١٧٦، وإما نفوس سبعية، وهم أهل العدوان، والمسارعة إلى الانتقام بالسيف، أو بالهمة النفسية أو بالعين. وإما نفوس إبليسية، وهم أهل الجدل فى الباطل، والساعون للمفاسد والتفرقة والغيبة والنميمة، وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، وإظهار البدع وإخفاء السنن، وهؤلاء مشاهدهم إبليسية يستخدمون قوة العقل فيما يضر الخلق، ويغضب الحق نعوذ بالله منهم ومن التشبه بهم وأحوالهم لا تخفى على أهل الاستقامة مهما جملوا ظاهرهم، ومنهم الجبرية، والقدرية، والغلاة فى التفاضل كالخوارج، وغيرهم من الفرق الضالة. عصمنى الله وإياك يا أخى من الوقوع فيما يكره، إنه مجيب الدعاء.

مشهد الحكمة

أبتدئ لك بمشهد الحكمة، وهو مشهد حكمة الله فى تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه ويعاقب عليه، وأنه سبحانه لو شاء لعصمه منه ولحال بينه وبينها، إذ لا يكون فى العالم شئ إلا بمشيئته تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأعراف ٥٤، وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدى، وأنه له الحكمة البالغة فى كل ما قدره وقضاه من خير أو شر، طاعة أو معصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها وتكل الألسن عن التعبير عنها، فمصدر قضائه وقدره لما يبغضه ويسخطه اسمه الحكيم

الذى بهرت حكمته الألباب. وقد قال تعالى لملائكته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة ٣٠، فأجابهم سبحانه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٣٠، فللَّه سبحانه فى ظهور المعاصى والذنوب والجرائم وترتيب آثارها من الآيات والحكم، وأنواع التعرفات إلى خلقه وتنويع آياته ودلائل ربوبيته، ووحدانيته وإلهيته وحكمته وعزته، وتمام ملكه وكمال قدرته وإحاطة علمه، بما يشهده أولوا البصائر عياناً فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ آل عمران ١٩١، سبحانك، إن هى إلا حكمتك الباهرة وآياتك الظاهرة، ولله فى كل حركة وسكنة شاهد، وفى كل شئ له آية فى الأرض بينة دالة على الله وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق، كان سببها معاصى بنى آدم وذنوبهم، كآياته فى إغراق قوم نوح عليه السلام، وارتفاع الماء على رءوس الجبال حتى أغرق جميع أهل الأرض ونجى أولياءه وأهل معرفته وتوحيده، وكذلك قوم عاد وثمود.

وكم من آية فى فرعون وقومه، من حين مبعث سيدنا موسى عليه السلام إليهم، بل من قبل مبعثه إلى حين إغراقهم، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب، وفى التوراة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: (اذهب إلى فرعون فإنى سأقسى قلبه وأمنعه عن الإيمان لأظهر آياتى وعجائبى بمصر). وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم، وإلقائهم له فى النار، حتى نال سيدنا إبراهيم عليه السلام، ما نال من كمال الخلة، وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصى والظلم، ومجاهدتهم فى الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات، إلى غير ذلك من المصالح والحكم التى وجدت بسبب ظهور المعاصى، وكان من سببها تقدير ما يبغضه الله ويسخطه، وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه، بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا الحبيب العظيم أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط، فإن فواته وعدمه ـ وإن كان محبوباً له ـ لكن حصول هذا المحبوب الذى لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه، وفوات هذا المحبوب أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط.

وكمال حكمته يقتضى حصول أحب الأمرين إليه، بفوات أدنى المحبوبين، وأن لا يعطل

هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه، ويكفى فى هذا مثال واحد، وهو أنه لولا المعصية من أبى البشر بأكله من الشجرة، لما ترتب على ذلك من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تنزه وتعالى من امتحان خلقه وتكليفهم وإرسال رسله وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه وتنويعها وتصريفها وإكرام أوليائه وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله وعزته وانتقامه وعفوه ومغفرته، وظهور من يعبده ويحبه ويقوم بمراضيه بين أعدائه فى دار الابتلاء والامتحان، فلو قدر أن سيدنا آدم عليه السلام لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده لم يكن شئ من ذلك، ولا ظهر من القوة إلى الفعل ما كان كامناً فى قلب إبليس مما يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة، ولم يتميز خبيث الخلق من طيبه، ولم تتم المملكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل، ودار شقاوة وعدل. وكم فى تسليط أعدائه على أوليائه، وتسليط أوليائه على أعدائه، والجمع بينهما فى دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض، من حكمة بالغة ونعمة سابغة، وكم فى طيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سماواته وأرضه، وخضوع له وتذلل وتعبد وخشية، وافتقار إليه وانكسار بين يديه. أن لا يجعلهم من أعدائه، إذ هم يشاهدوهم، ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقته لهم، وما أعد لهم من العذاب. فأولياؤه من خشيته مشفقون خاضعون على أشد وجل وأعظم مخافة، فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت، وضعت رءوسها بين يدى الرب خضوعاً لعظمته واستعانة لعزته وخشية من إبعاده وطرده أو افتقاراً إلى رحمته، وعلمت بذلك نيته عليهم وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته، وكذلك أولياؤه المتقون إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم وغضبه عليهم وخذلانه لهم، ازدادوا منه خشية ورهبة وعلموا أنه لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيديه أولاً وآخراً، وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه، والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه.

وأما حظ العبد فى نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة، فبحسب استعداده وكمال علمه ومعرفته بالله تعالى وبأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شُرب معلوم.

مشهد التوحيد

مشهد التوحيد هو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين أصابعه، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، فالقلوب بيده، وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء، وأنه هو الذى آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذى هداها وزكاها، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ الكهف ١٧، يهدى من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. قال ابن عباس رضى الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه وتوحيده.

وفى هذا المشهد يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، علماً وحالاً، فيثبت قدم العبد فى توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الألوهية، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء، كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذى يقلب القلوب ويصرفها كيف شاء، وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه، وتخلى عنه، أى: وكله إلى نفسه، وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها، من اتخذه وحده إلهاً معبوداً، فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته فى قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعاً لها، ويتقدم خوفه فى قلبه جميع المخاوف، فهذا علامة توحيد الإلهية فى هذا القلب، وأول ما يتعلق القلب بتوحيد الربوبية ثم يترقى إلى توحيد الإلوهية، كما يدعو سبحانه عباده فى كتابه بهذا التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج على المشركين به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به فى الإلهية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ العنكبوت ٦١، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ المؤمنون ٨٤ - ٨٥، فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ المؤمنون ٨٦-٨٨، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ النمل ٥٩-٦٠، إلى آخر الآيات.

يحتج بأن من عمل هذا وحده، فهو الإله وحده، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغى أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا، فكيف تجعلون معه إلهاً آخر؟. والمقصود أن العبد يحصل له هذا المشهد، بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه. قال خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ هود ٨٨. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

الباب العاشر

وصايا للسالكين طريق رب العالمين

أصل سعادات الإنسان

لكل حى من الأنواع سعادة ألهم سبل الوصول لنيلها، فعاشت الأنواع الحية فى هناء، يمثل كل فرد منها مملكة عظيمة، لأنه لا يحتاج إلى غيره من أفراد نوعه ولا إلى الأنواع الأخرى، إلا الإنسان، فإن له سعادات لا تصفو حياته بدونها، وأصل كل تلك السعادات هى التمسك بالدين، لأن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بنفسه بأقل ضرورياته، إلا بمساعدة أكثر الناس، فكيف يمكنه أن يقوم بكمالياته منفرداً؟ قال الشاعر الحكيم:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعضهم لبعض وإن لم يشعروا خدم

ولما كانت السعادة المنشودة، لا تتوفر إلا بتلك المساعدة، لزم أن يكون نعيمه ومسراته ورفعته فى الحياتين، بمقدار ما يقوم به هو للمجتمع من النفع الخاص أو العام، ومن قال إن السعادة صدفة جهل، فإن الصدفة مفقودة عند أهل الإيمان قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ الأنعام ٩٦، وقال أيضاً: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ الرحمن ٦٠، وقال ﷺ: (اعملوا فكل مُيسر لِما خُلق له).

احفظ دينك

لابد من حفظك لدينك ولنفسك ولعرضك ولمالك، وللأمة جميعها. وكيف لا؟ وقد فصل الله لنا ما لابد منه وأكمل، وبالتمسك به والعمل بوصاياه ساد سلفنا، حتى دانت لهم الأمم، وبلغوا مبلغاً من طاعة الله تعالى به استجاب الله لهم، وخدمتهم ملائكته.

بين لنا الدين العقيدة الحقة بأجلى برهان وأوضح بيان. وشرح لنا أنواع العبادات التى بها كمال الجسم والروح، ونيل السعادة فى الدارين، فبش لها العقل وهش، واطمأن لها القلب، وظهرت أنواره على الجوارح بالأخلاق الفاضلة، فزكت النفوس وانشرحت الصدور واطمأنت القلوب، وأصبح المسلم أخاً للمسلم لا يظلمه ولا يحقره. ساد بالتقوى بلال حتى قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعنى بلالاً.

وضح لنا الدين المعاملة، حتى علم الفرد كيف يعاشر والديه، وزوجته وأولاده وأتباعه. وعرف التاجر والمزارع والصانع والخادم ما يجب عليه. وأصبح لا فرق بين الملك على عرشه، وبين الفقير على فرشه، إلا بحق من حقوق الله تعالى.

فصل لنا الأخلاق التى جعلت المسلم للمجتمع كالعضو للجسم، والمجتمع للفرد كالجسم للعضو.

حث الدين على العمل للدنيا والآخرة، مع الإخلاص لله، وجعل المال أساس كل خير، إذا جُمع من طرقه المشروعة، أمرنا بكل خير به صفاء حياتنا فى الدنيا، ونيل الخير فى الآخرة، ونهانا عن كل شر يضرنا عمله فى الدنيا والآخرة.

احفظ مالك

اعلم أن المال هو عناية الله تعالى بالعبد، به القيام بأكثر أركان الدين كالحج والزكاة والبر والصلة، وبه حُسن المعيشة فى الدنيا، والرحمة على الفقراء، أو حُسن الذكر بعد الموت، والأجر العظيم يوم القيامة.

المال نعمة الله علينا، فكيف نستعين به على معصية الله؟! أو كيف نبذله فى غير وجهه؟!

فيفقد المسلم ماله وراحته فى الدنيا، ويعذبه الله يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الإسراء ٢٧.

لا تنفق درهماً إلا إذا علمت أنك تكتسب أكثر منه من ثواب الله تعالى، أو من صحة، أو منزلة بين الناس.

اجتهد أن تنمى مالك وتحفظه فى يدك حتى إذا احتجت إليه وجدته، وكن رحيماً بالفقراء، واعتقد أن ما تنفقه على الفقراء ابتغاء وجه الله، تنال به العافية والوسعة فى رزقك فى الدنيا، والنجاة من هول يوم القيامة. قال رسول الله ﷺ: (داووا مرضاكم بالصدقة). وقال ﷺ: (الصدقة تُطفئ غضب الرب).

احفظ عرضك

أما حفظ العرض قبل أن نبين فضيلته، فنعرفه:

العرض هو محل المدح والذم من الإنسان. وتتفاوت درجات حفظه، فيحفظ الإنسان كرامته بين الناس بالتوسط فى معاملته، وبرعايته الآداب معهم، والمحافظة على الوفاء بالعهد، والإحسان إلى المحسن، والعفو عن المسئ، وستر عوراتهم، وبذل ما فى الوسع لمساعدتهم، ليحفظ عرضه مما يشينه سمعة ومنزلة، ثم يجب أن يكون ذا غيرة أولاً على نفسه أو ما يشين، فيحفظ جميع جوارحه مما يغضب الله، ويسخط الخلق، وكما يكره أن يقع فيما يشينه يجتهد أن يمنع غيره من فعل ما يشين بقدر استطاعته، ويتعين على العاقل أن تكون له غيرة على حرمه، تجعله يكون يقظاً إلى هذا الجناب، وبقدر تلك الغيرة على أهله يجب أن يكون غيوراً على أعراض الناس، فيتصور ما يؤلمه فى نفسه من حصول ما يشين، ومقدار ما يلم به من الغيظ، وحب الانتقام ممن آذاه فى عرضه، بعد أن يتصور تلك الحقيقة، يتحقق أنه إذا أطاع هواه، وخالف مولاه، وأضر غيره، يكون قد سلط على نفسه من لا يعرف الله جل جلاله، ومكن عدوه من نفسه. قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه: فإن المرء المؤمن كالفالج الياسر ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها ويغرى بها لئام الناس. يعنى أن المرء المؤمن ناجح رابح ما لم يعمل قبيحاً، فإنه يذل ويخشع بين الناس.

وحفظ العرض يجعل الإنسان عظيماً بين الناس، مأموناً على المال فى النفس والعرض، موثوقاً به عندهم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

احفظ الله يحفظك

قال رسول الله ﷺ: (احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده أمامك. كن مع الله تر الله معك). هذا الحديث الشريف جمع الخير كله، والخير أساسه معرفة الله تعالى ومحبته سبحانه وتعالى، ومعرفة الله لا ينالها إلا من عرف نفسه، ومعرفة النفس لا يحصلها السالك إلا بصحبة المرشد الكامل، لأن الإنسان جمع الحقائق الكونية جميعها، فالإنسان حقيقة، والكون علوه وسفله صورة الحقيقة الإنسانية، لأن الله تعالى خلق المُلك بيد وخلق الملكوت بيد، وخلق الإنسان باليدين، فكان الإنسان وهو هيكل صغير حساً ومبنى. هو الكل روحاً ومعنى، إذا تحقق بمعرفته شهد ما فيه من معنى خلقت بيدى، ومضنون ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين ٤، كشف له الحجاب فشهد ما فيه من الغيوب، التى لا يشهدها إلا صديق أو فاروق، فعلم ما يمكن أن يعلمه، وشهد ما يمكن أن يشهده فى نفسه، ولمعت عليه سواطع أنوار قوله ﷺ:(إن الله خلق آدم على صورة الرحمن).

فدهش عقله وحار لُبه، وسطعت أنوار العظمة والكبرياء والنزاهة عن الإدراك مع شديد الشوق وعظيم الغرام، فلم يستطع صبراً ولم ينتحل عذراً، وألقى بنفسه فى روض المشاهدة بعد المجاهدة، ليشهد الجبل، فظهر له أنه ليس له مثيل، فعجز عن الإدراك، وفرَّ من الإشراك، واشتد الهيام ونما الغرام، فعرف نفسه بالعجز والذلة، ولزم آداب الشريعة بنفس مضمحلة، تتحقق أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولديها يحفظ الله حقاً، بحول منه سبحانه وقوة منزهاً حضرته العليا عن الشريك والمثيل والضد والند، ملازماً أعتاب العبودية، تسليماً للشريعة، وخضوعاً لسلطانها، وعملاً بأحكامها، مع رعاية حكمة كل حكم، فكان حافظاً لله بالله، رهبة ورغبة، فحفظه الله ولم يكله إلى نفسه، وأقامه مقام أبدال الرسل، عاملاً بالإخلاص، محفوظاً من أن يكون للشيطان عليه سلطان، أو يكون عبداً لهواه وحظه، وهو من الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بعنايته سبحانه ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ بحسن توفيقه ومعونته، وإذا حفظه الله هذا الحفظ وفقه لمحابه ومراضيه، وأدخله جنة الرضا عن الله، بعد أن رضى الله

عنه، وهو المحفوظ بـالله من الفتـن المضلة والأهـواء المضلة، حتـى لـو سبق القـدر عليه بـالمعـصية، تـداركه بخفـى لطفه، قـال الله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١، لأن الله حـصنه فى حصـون قوله تعـالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧، ومن حفظ الله فحفظه الله تعالى، صار لا يخاف إلا ذنبه، ولا يرجـو إلا ربه، وتحقق أن الكـون ومـا حـوى مخلوق مقهـور مـربوب لـرب علىٍّ عظيم، وبحفظه ربه بعقد قلبه على حقيقة التوحيد، وقيامه بأحكام العبادة فى آنات التجديد، ومراقبة ربه فى كل شـأن من الشـئون، كـان ولاشك محفوظاً بـالله من شر النـاس، ومن شر الـوسواس، محصناً من الـشدة والـيأس، منعماً عليه بتسخـير ما فى الـسماوات وما فى الأرض جميعـاً له من الله رب العـالمين، وهـذا هو منـهج الحق، وصراط الله المستقيم، الذى جـاءنا به حبيبنـا رسول الله ﷺ، وهو طـريق آل العزائم، وكل سـالك فى طريقـى هذا لا تسـوح نفسه تلك السياحة، ولا يجـول عقله تلك الجولة، ولا ينفذ من أقطار السماوات والأرض بسلطان لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ويقوم لله بما أمره به، ويترك ما نهاه عنه فهو من الأدعياء فى طريقى هذا.

* * *

كن مع الله تر الله معك

أولاً ما أجهل الإنسان

يجتهـد الإنسـان أن يرضى جميع الخلق مع تفـاوت قصـودهم، وتبـاين آرائهم، واختلاف مـذاهبهم، ويستـحيل على الإنسـان أن يرضى مجتمعـاً ولو قل، بل قـد يتعذر عـليه أن يرضى واحداً فقط، لأن كل إنسان يطمع أن ينال من الآخر ما يطمع الآخر أن يناله منه، إلا رُسُل الله صلوات الله عليهم وسلامه عليهم والصديقين الأخيار مـن أوليائه، فإن طمعهم انحصر فى الله تعـالى، كما أن خـشيتـهم منه سبـحانه، لأن الله أشهـد عيون بـصائرهم حقـيقة الـدنيا وجمال الآخـرة، وكمال الوجه العلى فجعلوا الدنيا مطية للآخرة، وجعلوا الآخرة رفرفاً للوصول إلى حضرته، وغـيرهم فى عنـاء وتـعب، ولن ينـالـوا إلا مـا قـدره الله تعـالى لهم، فـإذا أرضى الإنسان جمـاعة كرهه آخـرون، فيعيش بـين شرور الأعداء والذل لـلأوداء، ليدفع عن نفسه

شرور خصومه، ويستديم ولاء أحبابه وكفى بذلك هماً. والإنسان مكلف بحقوق لله، تستغرق كل أنفاسه، فإذا اشتغل بمدافعة الأعداء ومداراة الأحباء، خرج من الدنيا مع ما هو فيه من الشغل، بتدبير نفسه وأهله ومنزله، وكل نفس يمضى مرحلة تقرب البعيد، وتنقص المسافة بينه وبين الموت، هذا الإنسان ما أغفله، لو تفكر لقال يا ليتنى كنت تراباً فى الدنيا قبل الآخرة.

بين الله للإنسان سبل السلامة وطرق النجاة ومناهج الخير، وأبى الإنسان أن يقيم نفسه عبداً مخلصاً لسيده ومولاه، الذى أنشأه من ماء مهين، خرج من مجرى البول مرتين، وأخرجه من الرحم، بعد أن أعد له من الخيرات والنعم، ما لا يمكنه أن يقوم به لنفسه، فيغفل عن كل تلك النعم، بل وعن شكر المنعم عليها، ثم يخاصم ربه، فلا يصدق وعده ولا يبر قسمه، فتارة يسخط عليه، إذا قدر عليه الرزق، وآونة يغضب عليه إذا لم ينله قصوده، ولو كانت فى معصيته، وحالاً ينكر ألوهية ربه، ويضع ثقته فى غيره، واعتماده على غيره، مع أنه يخضع لنظيره إذا حباه، أو سعى له فى عمل دنئ، ويحبه بملء قلبه، ويغفل عن المنعم المتفضل بعميم النعم، ما أجهل الإنسان! لو علم الإنسان لسارع إلى إرضاء الله تعالى، وحرص على معيته سبحانه وتعالى بالتسليم له جل جلاله والعمل بما أمر، والمحافظة على وصايا رسول الله ﷺ، وكل ذلك أمر سهل على الإنسان، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة ٢٨٦.

ثانياً كيف تكون مع الله

إن الله تعالى تنزه عن المعية التى تعلمها من نفسك، لأنه كان ولا كون، وهو على ما عليه كان، غنى عن الكون، ولكنها رعاية تنكشف لك بها حقيقة نفسك، وسر مبدأك، ونشأتك الأولى، فترى فى نفسك وفى آفاقك من آلاء إحسانه وجميل حنانه وآيات بيانه، ما يجعلك تحبه حباً فوق حبك لنفسك، وتعتقد أنه أقرب إليك من حبل وريدك، وأرحم بك من كل من سواه، إذا انكشف لك هذا الحجاب، تحققت أن الذى يحبه لك ومنك، خير لك من الذى تحبه لنفسك ومن نفسك، فخالفت حظك وهواك ورأيك، مسارعة إلى ما يحبه هو، وفى هذا المقام تكون من المجاهدين المخلصين لحسك وجسمك وعقلك، فلا تتحرك حركة ولا تسكن

سكنة، إلا إذا استبان لك حكمها شرعاً، هل هى فى رضا أو فى سخط، بل ولا تنال خيراً إلا شكرت المنعم الذى وهبه، ولا يبتلى الإنسان ببلاء مما لا يلائمه إلا رضى عن الله، واعتقد أنه خير، بتلك الرعاية يكون الإنسان مع الله حاضراً بالقلب. ومسلماً يتجمل بالرعاية، لا يهم بمعصية، وإن قدرت عليه أعقبها بالتوبة النصوح، معتقداً عجزه عن دفع ما قُدر عليه، راضياً عن الله فيما قدر، ساخطاً على نفسه بما فعلت.

ثالثاً ما علامة معية الله سبحانه لى؟

إن الإنسان يحس بتنوع أحواله بحسب جليسه، فإذا جالس العالم الربانى انجذبت روحه إلى عالم الملكوت الأعلى، وقد تشرف على قدس العزة والجبروت، بما ترتسم على جوهر نفسه من رسوم العلم الإلهى، وقد قال حذيفة بن اليمان لأبى بكر: نافقت يا أبا بكر. ومعنى كلامه: أننا نكون مع رسول الله بحال، فإذا توجهنا إلى بيوتنا زاولنا نساءنا وأبناءنا، فشهدنا فى أنفسنا حالة أخرى، رآها سيدنا حذيفة ﷺ نفاقاً، فقال له سيدنا أبو بكر: نافقت يا حذيفة، واشتد به هذا الوارد، حتى رفعه إلى رسول الله ﷺ فقال: (لو تدومون على ما تكونون عليه معى لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم ولكن روحوا القلوب ساعة فساعة).

وإذا جالس الإنسان جاهلاً مغروراً، أعمى عيون بصيرته وحجبه عن الله، فأنت أيها الأخ إذا أحببت أن تعرف معية الله لك، فانظر فيما أقامك، فإن آنسك بشهود آياته، وفرحك بفضله ورحمته، وأقامك فى محابه ومراضيه، وجملك بأخلاقه الربانية، وأقامك نوراً لعباده، ومنحك شهود مقامات التوكل عليه، وتفويض الأمور إليه، واليقين الحق بوعده ووعيده، ودوام المراقبة فى كل شئ، لديها فاشكره على أن تفضل عليك بمعيته إياك، ووفقك لأن تكون معه.

أساس طريق آل العزائم

أساس طريقنا هذا محبة الله تعالى إعظاماً وإجلالاً، ومحبة رسول الله ﷺ تسليماً وانقياداً، وإيثار كل مسلم على نفسه بأن يحب له ما يحبه لها، ويؤثره عليها فى الخير، لأنا جمعنا الله تعالى لنجدد ما خفى من معالم سنة رسول الله ﷺ علماً وعملاً وحالاً، لنحيى ما اندرس من أنوار كتاب الله تعالى علماً وشهوداً وتسليماً ورضاء، ونعيد الماضى بما كان عليه سلفنا الصالح – نفعنا الله بهم – ليكون الله تعالى معنا وعندنا، ونكون مع الله تعالى وعنده سبحانه.

هذا وإن كل أخ من أحبابى فى الله، يجب عليه أولاً أن يحصل ما لابد منه من علوم الشريعة المطهرة، ليعمل لله بما أمره، وليكون قدوة حسنة لأحبابه فى الله، دالاً على الحق بعمله أولاً وبقوله ثانياً وبحاله ثالثاً. فمن ترك العمل الذى به يكون عبداً لله تعالى عابداً حُرم السعادتين، ومن بين لغيره بياناً يخالف بيان رسول الله ﷺ، أو عمل عملاً يخالف عمل رسول الله ﷺ، أو تحلى بحال ينكره العارفون بالله تعالى، كان ضالاً مُضلاً، مظهراً لإبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومن بَيَنَ الحق بلسانه، ولم يعمل به بجوارحه ونفسه، كان فتنة للمسلمين. وكالسراج الذى يحرق نفسه ويضئ لغيره، لأن الناس أسرع تقليداً للعمل منهم للعلم، وإنما أفسد العقائد، وفرق المجتمع الإسلامى، عالم اللسان جهول القلب، يأمر الناس بالخير ولا يعمله، فيقتدى به الناس، ولا ينتفعون بعلمه لعلمهم بعمله، وليس هؤلاء بأئمة للمسلمين، لأنهم أعوان الشيطان، وعبيد الدنيا وخدمة الملوك، ولو كانوا كفاراً؟

إياكم وأهل الغواية

إخوانى إن كثيراً ممن ينتسبون إلى طريقى، ويدعون صحبتى، أعماهم الحظ وأضلهم الهوى وقادهم الشيطان الرجيم، فنسبوا أنفسهم إلى المعرفة مع جهلهم، وإلى الكشف مع بُعدهم، فأضلوا كثيراً من الإخوان بزخرف القول غروراً، فتركوا الصلاة والصيام، ووقعوا فى شر من ذلك، وهو القول بالحلول، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التوبة ٣٤، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ

فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ المنافقون ٤، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ البقرة ٢٠٤ - ٢٠٦.

وكلنا يعلم أن كل آية نزلت فى بنى إسرائيل جَرَت بذيلها أهل الغواية.

قال رسول الله ﷺ: (افترقت بنو إسرائيل إلى اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى). وهم الآخذون بالعزائم من آل العزائم.

الوصية

أنا إن شاء الله تعالى مسافر إلى الحج، لأن الوقفة فى هذا العام بالجمعة، اقتداء برسول ﷺ، لأنه حج حجة الوداع وكانت الوقفة بالجمعة. وإنى واثق أن الله يحفظ أهل الصدق من أحبابى فى الله، من فتنة هؤلاء الضالين، ولكن الله سبحانه تعالى قال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذاريات ٥٥.

فأوصيكم يا إخوانى أن تكونوا على بصيرة من أمركم، فإنكم إنما صحبتمونى فى الله لنجدد السنن، ونسارع إلى محاب الله ومراضيه، والعهد بينى وبينكم أنى عبد لست معصوماً، فإذا خالفت السُنة وجب عليكم قهرى على العمل بها، شفقة علىَّ ورحمة بى، فإن أَبَيْتُ أن أرجع إلى الحق، وجب عليكم معاداتى ومحاربتى، ومخالفتكم لى نجاة لأنفسكم من الاقتداء بمضل، فاحفظوا يا أولادى عهدى إليكم فى غيبتى عنكم، والله تعالى خليفتى عليكم، واقبلوا منى نصيحتى وهى أن كل أخ فى الله لى منتسب إلىَّ، يدعوكم إلى طريقى، فلا تقبلوا منه إلا إذا كان معه إجازة منى، ممضاة بإمضائى، فإذا أظهرها، وتحققتم من صدقه فهذا أمرى أنا، ولا اطلاع على الغيب، فزنوه بعد ذلك بالموازين التى عاهدتمونى على العمل بها، وهى كتاب الله وسُنة رسوله، وعمل السلف الصالح من أئمة المتقين، فإن خالف فخالفوه واهجروه، واستعيذوا بالله من شره.

حقيقة النسب

واعلموا يا أبنائى أن النسب نسبان: نسب روحانى ونسب طينى. فاحذروا أن تكرمونى فى أقاربى بالتسليم والانقياد، إلا إذا كانوا عاملين بما كان عليه سلفنا الصالح، مجددين للسنة عاملين بها، ولكنى أحب أن تكرمونى فيهم بالنصيحة والموعظة، ليكونوا أنجماً مشرقة لبيان السُنن والعمل بها، واعتبروا بخبر الله عن خليله فى قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ التوبة ١١٤، وبخبر الله عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ هود ٤٧.

ويقول النبى ﷺ: (إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء) يعنى جماعة من بنى هاشم (إنما وليى الله ورسوله وصالح المؤمنين ولكن لهم نسب أبله ببلاله)، وإنى أبرأ إلى الله من كل قريب وصاحب ورفيق، يخالف السنة والكتاب ويعين على مخالفتهما، وقد حذرنا الله تعالى بقوله لنا: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ التوبة ٢٤.

فاحذروا أهل الفتنة من الجاهلين الشاطحين، ولو استدرجهم الله تعالى، فأظهر على يدهم العجائب، واحذروا علماء الدنيا المفتونين بحب المال والجاه والرياسة، وقد ورد فى الخبر: (إذا رأيتم العالم على أبواب السلاطين فاحذروه فإنه لص).

وتمسكوا يا أحبابى فى الله بالسنة وعضوا عليها بالنواجذ، وفروا من كل متساهل بها، واعلموا حق اليقين، أن الله ما أمرنا بعمل على لسان رسول، ونهانا عنه على لسان ولىٍّ، ومن تأول القرآن والسنة تأويلاً مؤدياً إلى مخالفة الشرع فهو شيطان مارد، فاحذروه، واتقوا الله حق تقاته، بأن تطيعوه فلا تعصوه، وتذكروه فلا تنسوه، وتشكروه فلا تكفروه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

لى نسبة أظهرت معناه فى المبنى ... منها اتصالى به من يدرها يهنى
وهى العبودة تحقيقى بمرتبتى ... من فوق أعلى ومرتبتى من الأدنى
لا لبس يحجبنى إن شمسه طلعت ... فى رق منشوره عنى بها أفتى
سيان مشهد رسمى فى مواجهتى ... أو مشهدى حسن معناه بأو أدنى
حيث الجمال عياناً لى بلا حجب ... فى رق ذاتى ورقى برزخ المعنى
سر الظهور ليجلى لى منازلةً ... فى ظل رسمى ليجذبنى فأتغنى
فى المثنوية آيات الظهر ترى ... أتلو المثانى والتالى لها يغنى
قد يقشعر بها جلدى إذا تليت ... بل يطمئن بها قلبى إذا حنا
وهى المثانى وفيها المثنوية لى ... عبد تجمل من أسمائه الحسنى
قد كان ملكوته روض الشهود لدى ... كشف الحجاب وصار القدس لى مغنى
عاينت فى الجمع غيباً كان يستره ... عنى وجودى ومن ذاق الصفا جنا
ستري عن الكون والآثار يجعلنى ... فى جنة الكشف مجنوناً بمن أغنى
هذا الجنون نعم حكم الجهول على ... من ذاق صافى طهور شرابه الأهنى
وهو الصفاء وعقل الحق يعقلنى ... عن حجتى بحضيض العالم الأدنى
عقل به أتلقى الغيب متضحاً ... والقدس للروح الاجتبا سكنا

أسباب تنوع الأفكار عند الصوفية

الإنسان خلق وسطاً

الإنسان كله عجب، خلقه الله وسطاً بين عالم ملكه وملكوته، فهو بمادته واحتياجه حيوان فى رتبته بحسب كمالياته، ومن حيث قواه النفسانية ملك روحانى، يفيض أنهار الرحمة والحنان، والخير والعرفان، أو شيطان أبلس إلى أرض الفساد، وأخلد فى حضيض الشر والانتقام، فبينما تراه حيواناً داجناً، وإذا بك تراه سَبعاً كاسراً، أو مشكاة نورانياً لبيان سبل الخير والرشاد، فسرعان ما تتنوع أفكاره بأقل منبه، فبينما تراه منقاداً سميعاً مطيعاً، وإذا بك تراه نافراً هلوعاً جزوعاً.

أسباب تنوع الأفكار

السبب الأول: تنوع تحتقر فيه عظائم الأمور، وشدائد الآلام، وهذا التنوع يدوم وينمو، وسببه بهجة الروح بعالمها المجانس لها، فتفر من مفارقها الذى حجب عنها أشعة أنوار عالمها العلوى، وتأبى إلا الاتصال به، فإذا وصلت إليه، وابتهجت به، أحبته، وغارت له، واهتمت أن تمحو ما يحجبه عن النفوس، وما يخالفه من العوائد والأخلاق، والعقائد والمعاملات، وأصحاب هذه النفوس هم الصديقون، أبدال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهم أسباب الحياة الروحانية، وموقظو العالم الإنسانى من رقدة الجهالة ونومة الغفلة.

وهم أنواع: أهل العلم والعرفان والحكمة والدالون على الله بالقول والعمل والحال.

ومنهم أنصار الله وأنصار رسوله ﷺ، المجاهدون فى سبيل الله بالمال والنفس.

ومنهم الصالحون المصلحون، والمهذبون للأخلاق المزكون للنفوس.

ومنهم الأسخياء أهل الجود والنجدة، المواسون للبؤساء، الرحماء بالفقراء والأيتام.

ومنهم أئمة الهدى، القائمون بحدود الله، المنفذون لأحكام الله، الحافظون لشريعة رسول الله ﷺ.

ومنهم أهل القلوب المطمئنة بذكر الله والنفوس الساكنة إلى منفسها، وكل مسلم عامل بالكتاب والسُنة فهو منهم بحسب مرتبته.

السبب الثانى: مما ينوع الأفكار شهوة قاهرة، يدعو لها الفراغ والحدة، فترى الجبان بها جريئاً والمقتصد مسرفاً، ولا يسلم من هذا المرض إلا من أسعدهم الله بصحبة العلماء الربانين، وتلك الشهوة تصغر أمامها المخاوف كلها، فلا يبالى من تسلط عليه من الحق، ولا من الخلق، وشر باعث عليها الخمرة حفظنا الله من شرورها.

السبب الثالث: أمل محقق الوصول، كطلب حق يعتقد الطالب أنه له، فإذا كان الحق لجماعة أو لأمة وهو خير عام، ونفع شامل، كان ذلك التنوع شديداً جداً، ينسى أهله حياتهم.

فإذا كمل هذا التنوع فى المجتمع، استعرت ناره، فلا تطفأ إلا بنيل هذا الحق، وإن كثيراً من أهل الحكمة إذا ظهرت عليه علامات هذا الباعث، أسرعوا فى تلطفه، فإنه إذا استحكم كان سبباً فى احتقار المانعين للحق، أو زوال ما بيدهم، وإن هذا التنوع كم أزال ملكاً من قوم لآخرين، وكم محا مجداً من مجتمع لآخر، لحرص من بيده حق غيرهم، وتنوع أفكار أصحاب الحق تنوعاً ينسيهم الرحمة والعاطفة والصحبة، وهذا التنوع سبب فى تغير الأحوال، وانتقال المجد من أمة لأمة، ورفعة قوم وخفض آخرين، فترى المجتمع، أو الأمة، بينما تتاخم السماء مجداً، وتنسى الربوبية كبراً، آمنة بما لها من عدد وعُدد، نافذة الكلمة على العالم، وإذ بها قد اعتورها الخلل داخلاً وخارجاً من حيث لا تعلم، ليقيم الرب جل جلاله حجة على أنه الملك القوى، والمتكبر العلى، وعلى أنه خالق الخلق، بيده الملك والملكوت، يهب الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، هذا التنوع ليس للإنسان فيه يد، إنما هى يد العناية الإلهية، تجعل الضعيف المستضعف قوياً متقوياً، قدرة حيرت العقول، وأعجزت الأفكار، وإنا لنرى بأعيننا حوادث تلك السنين، وكيف كان أمس، وكيف صار اليوم، وأمر سماوى لا قدرة لسكان الأرض على رده، إلا بتنفيذ ما قدره الله. قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن ٢٩، فهو سبحانه وتعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شئ قدير، ولكن

من سعادة المجتمع أو الأمة عند هذا التنوع، أن يكون لها أئمة زكت أنفسهم من شوب الهوى والحظ، وتطهرت عقولهم من حب الذات، ورخص المجد الأفرادى فى نظرهم، حرصاً على الخير العام، ولديها يفوزون بكل قصودهم.

السبب الرابع: تحقق اليأس من نيل مقصد ينال من الغير، وبذلك تتنوع الأفكار، فتتغير الأحوال، وهذا المرض سهل العلاج، لأن المريض به إذا تنسم بارقة أمل، أو نيل بعض قصده، رجع إلى ما كان عليه.

* * *

المختار من اختاره الله

أولاً مختار الله تعالى

تتفاوت الرجال بقدر خصوصياتهم، وخير خصوصية يجمل الله بها عبداً من عباده أن يقيمه مقام رسله عليهم صلوات الله أجمعين لبيان ما أُبهم على عباده وتفصيل ما أجمل، ومتى أقام الله رجلاً هذا المقام جمله بالأخلاق التى بها يألف ويؤلف، ومنحه الحال العلية التى ينوع بها الأفكار، حتى يتضح الخير الحقيقى والسعادة الحقيقية، اتضاحاً يجعل من وفقهم الله تعالى يسارعون إلى الحق من غير كلفة، ويحبون الحق لهم وعليهم، مع الحرص على خير الخاصة والعامة، واحتقار ملاذهم فى نيل الحق والعمل به وله، وليس كل من أمكنه أن يعمل للخير بمختار، فكم من عامل للخير ونفسه تنازعه منازعة تؤدى إلى انقلاب الخير إلى شر، ومثل هذا لا يكون مختاراً لله تعالى ولو اختاره الناس، وكم من خامل غير نابه هو مختار الله تعالى، وهو الرجل الذى يمكن أن يكون على يده الخير، ومثل هذا لا ينقص إن طلب لنفسه السؤدد وتوليه عظائم الأمور، لأن سيدنا يوسف عليه السلام قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يوسف ٥٥، لما يعلمه فى نفسه من أنها لا تقهره إذا تمكنت، ومن علم فى نفسه الرغبة فيما يلائمها من السيادة أو الحظ والشهوة وهو عامل بإخلاص للخير، واختاره الناس، فالواجب عليه أن يكل الأمر لغيره حرصاً على نجاة نفسه، ونجاة الخلق من أهوالها، وخير يشوبه الشر ليس بخير فى الحقيقة ونفس الأمر، وعامل لا يهمه نجاة نفسه وسعادة من يعمل لهم عدو لنفسه، فكيف يكون صديقاً لغيره؟!

ثانياً الخير الحقيقى

هذا، وللحس سلطان على العقل وعلى النفس، فقد يحكم الحس على الإنسان بحكم بحسب ما شهده وتكذبه الحقائق، وحكم لا تؤيده الحقائق باطل، وإذا اختار الله عبداً فأقامه فى محابه ومراضيه، فالأولى لأهل الإيمان أن يختاروه، ولا ينبغى أن يضع المسلم ثقته إلا فيمن يراقب الله تعالى، ويحافظ على شريعته، ووصايا رسوله ﷺ، وخير لا يؤدى إلى رضاء الله تعالى ورضاء رسوله ﷺ هو شر، وإن نال العامل له رضاء جميع الخلق، وكيف يكون عاملاً للخير من لا يراقب الله تعالى؟ وما هو الخير الذى يعمل له؟ ألخير دنيوى يزول وتبقى آثامه؟ أم لخير شهوانى يلبس فاعله الخزى؟ أم لجاه وسيادة فى الكون يجعل صاحبه يوم القيامة يتمنى أن يكون تراباً؟ إنما الخير الحقيقى أن يوقظ العامل أهل عصره من نومة الغفلة عن الآداب الشرعية، ورقدة جهالتهم بأنفسهم وبقدر نعم الله تعالى عليهم، حتى يكثر أهل الخير ويقل أهل الباطل، وبقلتهم قد يزول الباطل أو يختفى.

كل إنسان يطلب الخير ويحبه، ولكن جهل الإنسان حقيقة الخير أو طريقه الموصل إليه، فخير الناس للناس من عرفهم الخير الحقيقى وبين لهم منهاجه، وإن احتقره من ليسوا من الناس، وشر الناس من فرح بما ناله من المكانة عند الناس، وهو فى غضب الله تعالى فيهلك ويهلك غيره.

ثالثاً الواجب على كل مسلم

والواجب على كل فرد من المسلمين، أن يجتهد كل الاجتهاد فى نجاة نفسه فى الدنيا والآخرة، ولا يكون ذلك إلا بترك التقليد، إلا لرسول الله ﷺ ولأئمة الهدى، ممن وصفهم القرآن وأثنى عليهم، ثم يترك التسليم، إلا لرسول الله ولمن جملهم الله تعالى حتى صاروا أشبه الناس به ﷺ، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً وإما خافياً مستوراً، وطالب الحق ييسر الله له من يدله عليه، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين، لا يطلبه عبد بإخلاص وصدق ويرده، والمقلد من غير بصيرة من الهمج الرعاع أتباع كل ناعق، الذين لم يهتدوا بالعلم ولم يقصدوا الخير الحقيقى لأنفسهم، كالغوغاء الذين إذا سمعوا الموسيقى أسرعوا إليها وتركوا أهم الأعمال الضرورية، وإذا علموا بفرح أو خصومة اجتمعوا من غير

قصد وقلدوا غيرهم وكل ذلك لنقص التربية الدينية.

ولو ذاقوا حلاوة الإيمان ولذة التقوى لخدمتهم الملائكة، ولدانت لهم دول الأرض جميعاً، كما كان لسلفنا الصالح، وكانوا أقل عدداً ولكنهم أقوى يقيناً وأعظم خشية من الله تعالى فكان الله معهم وكانوا مع الله تعالى، وهم أصفياء الله المختارون له سبحانه، أسأل الله أن يتفضل علينا بما تفضل به عليهم، وأن يعيد لنا هذا المجد بمنه وكرمه آمين.

منحت المجتبين هدى جمالاً ... منحتهمو البيان والاتصالا
جذبت قلوبهم عمرت بنور ... فنالوا الحب أوليت الوصال
وهبتهمو العلوم علوم غيب ... يترجم فردهم إن قام قالا
يبين سر قرآن مجيد ... وفضل الله للأفراد والى
بحلهمو برحلتهم يليحوا ... علوم الغيب والمحبوب نالا
هو العلم اللدنى من ينله ... يفز بالوصل قد يعليه حالا
لأن النور نور ضيا التجلى ... أضاء القلب فانفعل انفعالا
يجمل من يحب بسر حال ... من المعطى من الله تعالى
يكون النور فى دنيا وأخرى ... سراجاً مشرقاً يجلى مثالا
يجدد سُنة المختار يبدى ... من القرآن أسراراً جمالا

الباب الثانى عشر

أصول الفضائل والخلق والتخلق

أصـول الفضائل

من أصول الفضائل العقيدة الحقة، التى ينتج عنها كل خير فى الدنيا والآخرة، ومأخذها القرآن والسنة. والعبادة بإخلاص لله تعالى، التى ينال بها الإنسان السعادة فى الدنيا والآخرة، ومأخذها عمل رسول الله، والأئمة الهداة بعده.

ومن أصول الفضائل الأخلاق الجميلة، بحسب ما تقتضيه الشريعة المطهرة، وفضائل الأخلاق: العفة والشجاعة والعدل والكرم.

ومن أصول الفضائل المعاملة الحسنة التى يراقب فيها العامل عند معاملته وجه الله تعالى، والمسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر، وهى التى تنتج للإنسان فراغ قلبه من العناء وراحة بدنه من التعب، ونيل النعيم المقيم يوم القيامة.

الخـلق والتخـلق

من نظر إلى الإنسان بعين البصيرة، ونظر إلى الكون بعين الفكرة، تحقق أن الكون من أعلى إلى أدنى كالإنسان، لأن العالم جميعه من العرش إلى الفرش يمثل إنساناً واحداً، فالعرش مثال القلب المحيط بالإنسان، حيطة علم وتأثير، والكرسى كالدماغ، لأن الدماغ محل انبعاث الإرادات، والسماوات كالرأس، والنبات كشعر الإنسان، والبحار والأنهار كدم الإنسان، والأشجار كعروقه، والحيوانات كلحمه، والملائكة كنفسه الناطقة، والكواكب الثابته كجوارحه الثابته، والكواكب السيارة كجوارحه المتحركة، والحياة كيقظته، والموت كنومه، والصيف كغضبه، والربيع كصفائه، والشتاء كجبنه، والخريف كاعتداله، وفيه سر مصون فوق الكون، أشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ص ٧٢، فهو فى أسفل سافلين إن أخلد إلى الأرض واتبع هواه، وفى أعلى عليين إن زكت نفسه وفرَّ إلى الله، فقد يبلغ الإنسان فى رُقيه منزلة تفوق الملائكة، وقد ينحط فى هوة إلى حضيض الأرذلين، وأسفل

سافلين فى الدرك الأسفل من النار، وبين هاتين المنزلتين مقامات ومنازل وأطوار ومراحل.

ولما كانت هذه حقيقة الإنسان، والإنسان مركب من الأخلاط الأربعة: النار والهواء والماء والتراب، التى تشير إلى العناصر الأربع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فهو مقهور لكل ما غلب عليه، لذلك وجب عليه أن يحصل ما به كمال أخلاقه، حتى يكون وسطاً بين العالم، جامعاً للكمالات كلها، ولا سبيل إلى نيل هذا المجد العظيم إلا بمجاهدة النفس، وقهر الحقائق التى تميل به إلى الدرك الأسفل من النار، لتنقاد إلى الحقائق العلوية، التى تسارع به إلى رضوان الله الأكبر، ووسيلة ذلك التخلق بأن يتكلف عمل الفضائل، مهما نازعته الحقائق السفلية، فيعفو عند ثوران الشهوة، ويعدل عند ثورة الغضب، ويجود عند الاحتياج، وينفع عند الضرورة، حتى يحصل له ملكة الفطرة وجمال الخلق، ومن لم يتواجد لا يجد، ومن وجد استراح من التواجد، ومن أنكر تلك الحقائق جهل حكمة بعثة الرسل، لأن الإنسان مكون من العناصر كما قدمناه، فليس مفطوراً على الخير ولا على الشر، بل هو قابل لكل حقيقة منهما، والمفطور فى الحقيقة هو الملك أو الشيطان، لأن الملك من عنصر نورانى، والشيطان من عنصر نارى، فالملك مفطور على الخير والطاعة، والشيطان مفطور على الشر والمخالفة، والإنسان قابل لهما، لذلك بعث الله الرسل، وأقام ورثتهم مقامهم، والإنسان مسكين ينجذب بكليته إلى ما يقتضيه زمانه ومكانه، فإذا وُجد بين الوحوش كان وحشاً كاسراً نفوراً عنيداً، وإذا وُجد بين أهل الصفا كان أشبه بالملائكة، فإذا فارقهم نزعت نفسه على ما يقتضيه وقته، لذلك ترى الإنسان إذا صحب أهل التقوى صار تقياً، وإذا فارقهم إلى أهل الفساد كان منهم أو معهم، ومن رغب فى نيل الخير جاهد نفسه، وقهرها على ملازمة أهل التقوى، حتى يبلغ درجة الكمال الإنسانى الذى يكون فيه كالمعدن النفيس الحافظ لرتبته فلا يتغير، ولو ألقى فى السَبخ، أو كالمسك الذى يطيب كل مكان يوضع فيه، ومع بلوغ الإنسان درجة الكمال، يجب أن يتمثل بأكمل منه، فيتشبه به إن كان بعيداً عنه بموت أو غربة، أو يجتهد أن يديم صحبته حتى يبلغ كمال المراقبة والرعاية، وهو الوارث لرسول الله المُمد بروح الإلهام. وخير وسيلة للأخلاق، أن ينظر إلى الفضائل المحبوبة فى غيره، فليلزم بها نفسه، وإلى القبائح المذمومة فى غيره، فيكرهها من نفسه كما كرهها من غيره.

قـرأت المعـانـى سطـرت فـوق هـيكلى فقهـت مقـــامـي حـيـث قـــدرى أولى
تــرنمت تــسـبـيحــاً لــربــى فلاح لى حقـــائق تـنـــزيه بغـير الـتــــأول
شهــدت البـــدائع أنبــأتنــى بغيبهــا فـشـاهـدت مضنـونـاً وعـاينـت منـزلى
شهــدت مقــامــى قبل سـور عنـاصرى وعــاينت قــدرى فى الكـتــاب المنــزل
أنـــا صــــورة الـــرحمــن لى كل كـــائـن ولله قــــد أبــــدعـت تـفـصـيل مجـملى
تجــاذبنـــى تلك العنـــاصر مقتـضــى طـبيعتهـــا تــدعــو انحــدارى مـن علِ
وســابقــة الإحـســان تــدعـو لـرفعتـى تـنــــادى بــــإخلاص أيـــا روح أقـبلى
عن الــشكــر عجـزى حيث أوليت حبه وإحـســـانه بـــالجــود محـض الـتفـضل

* * *

حسن الخلق سعادة فى الدنيا والآخرة

الأخلاق الحسنة إما فطرية، وإما تكليفية. فالفطرية منها تحصل لصفاء جوهر النفس، لأن جوهر النفس إذا كان نورانياً يقبل الخير، ويرد الشر، ويكون مجملاً بالرحمة والرأفة، والعاطفة والبر والإحسان، فينشأ الإنسان محباً للخير وأهله، ومعادياً للشر وأهله، شكوراً فى الرخاء، صبوراً فى البلاء، يعفو ويصفح، ويؤثر أخاه على نفسه، ويجازى السيئة بالحسنة، فيحبه الله والناس أجمعون، ويعيش الناس منه فى سلامة، وهو منهم فى أمان، لا حسود للنعمة، أو شيطان النزعة، وهذا المفطور على جميل الأخلاق، إن أعانه الله بمرشد كامل، ورث أحوال الأنبياء، ومنحه الله التخلق بأخلاقه العلية، وإن عاش فى مجتمع فاسد الأخلاق حفظه الله من شرورهم، وإن أفسدوا عليه حياته لمخالفتهم إياه فى المعاملة، وهذا أشبه بسراج بين العميان.

أما المتخلق فإما أن يكون تخلق خوفاً أو طمعاً، فالذى يخاف من السوط، ويطمع فى الدنيا فهذا قد يترك دينه خوفاً أو طمعاً، فيرتكب من الدنايا والسفاسف ما يتبرأ منه الحيوان الأعجم، فإن الحيوان لا يبالى أن يرفع صوته الدال على نوعه أمام أشرف الحيوانات، ولكن

هذا المتكلف قد يترك دينه الحق إذا خاف أو طمع، وقد يرتكب أكبر المنكرات إذا أمن جانب الخلق، وقد يضر أمة بأسرها إذا نال خيراً، ولو من أعدى عدو لأمته، وهذا يراه الناس إنساناً مسلماً، وهو فى الحقيقة شيطان منافق، وعلاج هذا المرض سهل، إذا يسره الله تعالى قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ آل عمران ٧٣، وأما الذى يخاف من الله فهو من الذين آمنوا بالآخرة، فطمعوا فى الجنة، وخافوا من النار، فيسارعون إلى الطاعات للنعيم المقيم، ويتباعدون من المعاصى خوفاً من الجحيم، وقد كلف الله العلماء أن يبينوا للناس طرق الخير، وموارد السعادة، لأنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ليحصل الطمع والخوف، وأهل النفوس الزكية يعلمون الأخلاق الحسنة لأنفسهم من الناس، فإذا أحبوا شيئاً من أعمال ومعاملات وأخلاق الناس عملوا بها، وإذا كرهوا شيئاً من ذلك تركوه. والمجتمع الإنسانى مدرسة الصديقين، وكل إنسان يحب الفضائل والكمال الإنسانى، والعمل بها، وخير ما يتقرب به العبد خلق حسن يعامل به غيره، وفى الحديث الشريف: (ألا أخبركم بأحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إلىِّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة، قال: الثرثارون المتفيهقون الذين لا يألفون ولا يؤلفون).

والأخلاق الجميلة هى أخلاق رسول الله، وغيره هى أخلاق الشيطان. وكل مسلم يحب رسول الله ﷺ يجتهد أن يتخلق بأخلاقه ولو تكلف، ليكون من أهل معيته ﷺ.

حُلل من العليا على الأفراد ... تعطي من الوهاب محض وداد
يتجملون بها فيعلو قدرهم ... لمقام أعلي حضرة الإمداد
للفرد بعد الفرد حلل جماله ... ليست لأهل الجد والوراد
وهم القليلون الناظرون جمالهُ ... والعالمون طرائق الإرشاد
قد جملوا بجمال أخلاق العلي ... وتقربوا فضلاً بغير جهاد
سبقت لهم منه السعادة عندما ... ظهرت شئون الاسم بالإيجاد
ولم تجلى ظاهراً بنزاهة ... فيهم على سينا بغير بعاد

وأبــــاحـهـم سر الـغـيـــوب فعلـمــوا علـم الـيقـين بحـظـــوة الإسعــــاد
وسقـــاهمـــو هـــذا الـطهـــور بقـــدسهِ فــتجــــردوا عــن نـــسبــــة الأعـــداد
عـين الـيقـين شهـــودهـم ومقــــامهـم حق الـيقـين على سـبـيل الهـــــادى
أخـلاقـهـــم أخــلاقه وقـلـــــــوبهـــم قـــد عــمـــرت مـن نـــوره بــــوداد
زهـدوا الـــذى يفـنـــى بكـشـف صـادق فــتجـملـــــوا مــن مـنـعـم جــــواد
الحـمــــــد للـــــوهـــــاب مـن أنـــواره بـــالفـضل قــد ظهـــرت لعـين فــؤادى
وصـلاتـه وسـلامـه دومـــــــــاً عـلى ذخــــري وغــوثـــى فى نهـــار معـــاد
والآل والأصحــــــاب أنــــوار الهـــدى والــــوارثـين حـقـيـقــــة الإرشــــاد

الدنـيا والآخـــرة

كل الأنـواع الحية تحب الخير وتسارع إليه، وأكثر تلك الأنواع يعمل لـيوم بعد يومه، ولا ترى نوعاً يعمل ليومه الذى هو فيه إلا الحيوانات الداجنة، والحيوانات المجترة، وأكثر أنواع الحيوانات يدخر قوته كالنمل وغيره، فكأن الأنواع الحية تعمل لـيوم بعد يومها، وانفرد الإنسان بما منحه الله من العقل والنور بالإيمان بالغيب، فهو يعمل لليوم الآخر، وسطاً بين عالم الملك والملكوت، فإن انحط عن رتبته بين مراتب الوجود التحق بأسفل البهائم، فعمل للدنيا، وسارع إلى نيل شهوته وحظه، وهو الذى يتمنى يوم القيامة أن يكون تراباً؛ وذلك لأن الإنسان حيوان دينى، فهو بجسمه حيوان، وبما جمله الله فيه من نور العقل والروح أشبه بالملائكة، فتراه منجذباً إلى القوة التى تكونت لها الغلبة فيه، فإذا غلبت عليه القوة البهيمية كان شراً من الشيطان، لأنه يستخدم النفس الناطقة فى نيل حظوظه، وينحط إلى أسفل سافلين، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ التين ٤-٦.

ولهذا النوع من الإنسان علامات، منها أن تكون الدنيا أحب إليه من الله ورسوله ﷺ، وأن يكون عاجل حظه ماحياً من قلبه نور الإيمان بيوم القيامة، فلا يخاف عذاب الله، ولا يرجو نعيمه، وأن يحب لحظه، ويبغض لحظه، فيبيع دينه بدنيا غيره، ويترك طاعة الله بطاعة

الحكام والأمراء، إن ذُكر بيوم القيامة صُمَّت أذناه، وإن ذُكر بالدنيا سارع إليها، كما قال تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يونس ٧، وهذا النوع من الناس، إن كان على صورة الإنسان، من استقامة القامة وعرض الأظافر ونعومة البشرة، إلا أن حقيقته أدنى من الوحوش الضارية، فهو شقى فى الدنيا لحرمانه الاستفادة بحقيقته الإنسانية، من تحصيل الكمالات، ومن الحياة الطيبة التى يكون بها نافعاً لإخوانه، مقصوداً فى الشدائد، مرجواً فى النوائب، دالاً على الخير، مبيناً لسبل الله تعالى، ويحرم يوم القيامة من النعيم فى جوار الأطهار من أولياء الله تعالى، مع ما يكون فيه من عذاب الله الأبدى، كل ذلك، لأنه اختار الدنيا على الآخرة، مع سطوع البرهان، ووضوح الدليل، إن الدنيا دار الفناء والعناء، وإنها لا لذة فيها لعاقل، وإنها دار تحصيل وتكليف ومجاهدة وتعريف، إن الدار الآخرة هى دار المسرات، والبقاء فى نعيم مقيم، ومن عميت بصيرته عن النظر فى عاقبة الدنيا ومآلها، اتخذ الدنيا إلهاً من دون الله، فعاش عمره المحدود له فيها فى خزى وكد وبلاء، فإذا فارقها انكب على أم رأسه فى الحطمة، فندم ولات حين مندم.

الإنسان حيوان دينى بالفطرة، فهو على يقين من البعث بعد الموت، ومن الحساب بعد البعث، مهما كان عقله، لأن شر الكافرين ينسى الله تعالى عند الرخاء، فإذا قدر الله عليه الشدائد رجع إلى الله مقهوراً كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ العنكبوت ٦٥، فلا يلبث بعد تداركه بألطاف الله إلا ويرجع إلى كفره وضلاله.

أيها الإنسان، إنما أوجدك الله فى تلك الدار الدنيا لتعرفه بما أظهره لك فيها، مما لابد لك منه، فتعلم عجزك وضعفك، وفقرك واضطرارك، وقدرته وحكمته وإحسانه وشكره، فتسارع إلى شكره، وإلى العمل بمحابه ومراضيه، فإذا جعلت نعم الله وسائل لمخالفته سبحانه، وصار ما يوجب عليك الشكر يؤدى إلى الكفر، وما يوجب الذكرى والفكر والحضور يؤدى إلى البطر والزهو والنفور، فسوف يأتى على الإنسان يوم يقول فيه: يا ليتنى كنت تراباً.

أيها الإنسان، الدنيا دار تحصيل السعادة، والطريق الموصل إلى الله تعالى، ومهبط وحى الله، ودار أنبياء الله، ومحل مجاهدة أولياء الله، والشوق إلى الله، فاز من حفظ أنفاسه فيها،

وسعد من علم الحكمة من وجوده فى هذا الكون، فسارع إلى الخير، وهذه الدنيا أيضاً دار معصية الله تعالى، ومحل غضب الله تعالى، وهى دار البلاء والفتن والكفر والبطر، هلك والله فيها من أفردها بالقصد، وهى الضارة الغارة. أعاذنا الله من الفتن فيها، ووفقنا لمحابه ومراضيه.

النجاة من الدنيا بصحبة المرشد الكامل

إنا وإن كنا نعتقد أن الأمر سبق، وجفت الأقلام وطويت الصحف، على ما هو كائن إلى يوم القيامة، إلا إنا نرانا مطالبين بتحصيل الخير للنفس والجسم، وخير النفس تحصيل العلم النافع، وخير الجسم العمل بالعلم، فالواجب علينا تحصيل العلم والعمل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بصحبة العالم العامل، الذى نتلقى منه العلم قولاً والعمل فعلاً، إلا إنا لو حصلنا العلم من غير العالم العامل غلب علينا حاله، فكنا كالمصباح يضئ لغيره ويحرق نفسه، ولما كان العالم قليل الوجود، وجب علينا أن نبحث عنه بقدر الاستطاعة ونهاجر إليه، كما قال ﷺ: (اطلبوا العلم ولو بالصين)، فإذا ظفرنا به، وقامت الحجة أنه العالم العامل حقاً، حرصنا على تحصيل العلم والعمل بصحبته، حتى نفوز بالنجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون، وبقدر عنايتنا بالبحث عنه، يجب أن تكون عنايتنا بالأدب معه، حتى نتحقق أننا كأطفال رُضع، لا غنى لنا عنه، ونحتاط من شياطين الجن والإنس فى صحبته، فنبذل كل ما فى وسعنا لنتفرغ لتكميل أنفسنا، غير ملتفتين إلى ما يشغل القلب والجسم.

آداب صحبة المرشد الكامل

يجب أن نعتقد أنه إنسان غير معصوم، وأنه من الأفراد الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الأحقاف ١٦، فأثبت أن له سيئات، حتى يتميز عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فنكون بالنسبة لما يحصل منه، مما هو خلاف الأولى، كأننا موتى لا نشعر، فلا نقلده ولا ننكر عليه، ويجب ألا نسئ الظن به، فإن سوء الظن بالمرشد قطيعة، ولو كلفنا فوق طاقتنا، أو أظهر لنا ما يدل على بغضه، أو أهاننا فى مجتمع نحب أن نُعظم فيه، أو اختبرنا فيما تنزعج منه القلوب، كالأمر بترك الأعمال الدنيوية أو بالابتذال، أو بخدمة دنيئة، فإن المرشد يؤم السالك إلى حضرة رسول الله ﷺ، ولا يحب

أن يدخل على رسول الله ﷺ إلا من اطمأن قلبه عليه بصحة عقيدته وخُلُقه، وبالقيام بالأعمال الشرعية، لأنه على بصيرة من أنه إذا أدخل ذلك على رسول الله من لا عقيدة له، أو من هو سئ الخلق، تكون عقوبة ذلك من رسول الله ﷺ على المرشد، لأنه الحاجب على باب الملك، لا يدخل عليه إلا من يحبه، فيجب على السالك فى صحبته أن يستر خصوصيته، أدباً مع المرشد،إلا إذا أمره المرشد بأن يظهر خصوصيته لجمع الخلق على الحق، وفى هذه الحال يسمع ويطيع، محافظاً على نفسه من الغرور، فإن كثيراً من السالكين يمنح لسان الحكمة، أو الهمة فى شفاء الأمراض بإذن الله، والسيطرة على الجن بإذن الله، وشفاء القلوب من أمراضها بإذن الله، فيغتر، وربما رد عن الطريق، فاستدرجه الله تعالى فهوى فى الحضيض الأسفل، ومن لم يكن مع المرشد كالميت بين يدى المُغسل لم يظفر بطلبته.

وماذا تقول فى رجل باع دينه بدنياه؟ قال رسول الله ﷺ: (ملعون ملعون، قالوا من يا رسول الله؟ قال: من باع دينه بدنياه) أو كما قال، لكن من طلب الآخرة فيسر الله له الدنيا إكراماً لدينه، فلم تغرّه ولم تضره، فهو من السعداء المقبولين، والهدايا لم يُحرمها رسول الله ﷺ. والصوفى لا يسأل ولا يرد، وهو أوثق بما فى يد الله مما فى نفسه.

ومن آدابهم فى صحبته أن يؤثر إخوانه على نفسه، فإن آداب طريق الرجال المحبة، والاستقامة، والإيثار فمن أحب نفسه أوبقها، ومن خالف هلك، ومن لم ير أمر المرشد فوق شهوده رد عن الطريق، فإن من شهد مشهداً يخالف الشريعة، أو يخالف أمر المرشد فأطاعه، أطاع شيطانه، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥، وأشد الخطر على السالك منازعة نفسه لأمر المرشد، لأن السعادة كلها متوقفة على الفوز بصحبة المرشد وطاعته.

الدنيا مطية الآخرة

المسلم حقاً من عمل للدنيا ليستعين بها على الآخرة، لأن أصول الإسلام الخمسة لا تؤدى بمعناها الحقيقى إلا بالعمل فى الدنيا للدين، والمسلم الحقيقى هو العامل لنفسه وآله، وإخوته المؤمنين، بقدر استطاعته، لأن المسلم تكبر نفسه أن تكون عالة على غيره، ولو من أب وأخ وولد، حباً فى العمل بشرائع الإسلام، ورغبة فى أن يكون مجملاً، بمعنى قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون ٨، ولقوله ﷺ: (اليد العليا خير من اليد السفلى)، وقوله ﷺ: (علو الهمة من الإيمان)، وقوله ﷺ: (إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها)، وقوله ﷺ: (خير ما أكل المرء من كسب يده والولد من كسب أبيه).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ الملك ١٥، وليس السعى للدنيا للمؤمن العامل بأصول دينه وفروعه هو سعى للدنيا حقيقةً، لكن عمل لله تعالى، وعمل لرسوله ﷺ، وعمل لجميع المسلمين، وإنما يهمل العمل للدنيا الجاهل بشُعَبِ الإيمان، لأن الإيمان بضع وسبعون شعبة، فمن عمل ببعض شعبه وترك البعض الآخر كان ناقص الإيمان، ولا يكون مؤمناً كاملاً بمعناه إلا إذا عمل بكل شعب الإيمان، بقدر استطاعته، وأكثر شعب الإيمان متوقف على العمل فى الدنيا من الزكاة والحج، والبر والصلة، وإكرام الضيف، ودفع المظالم، وإقامة الحدود، وتأسيس المساجد، ومعاهد العلم، والمستشفيات، وتربية الأولاد، وحفظ الأعراض، حتى إن الصلاة المفروضة لا تؤدى بوجه أكمل إلا بالعمل للدنيا، لاحتياج المصلى إلى ستر العورة، وإلى ما يتطهر به، والمسجد الجامع الذى فيه الجمعة، فالمسلم الصانع عامل لله، والتاجر والمزارع كل واحد من هؤلاء عامل لله، والإمام فى محرابه، والعابد فى خلوته، سواء عند الله، إذا حسنت النية لوجه الله الكريم، وربما كان الحرَّاث والصانع والتاجر أقرب إلى الله تعالى عند حسن النية والعمل لله من العابد الزاهد، لأن هؤلاء يعملون للنفع العام، وهذا يعمل لنفسه. يقول ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه).

فالهجرة إلى الله تعالى هى حسن النية والإخلاص لله من المرء ولو كان فى تجارته وزراعته، كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ النور ٣٧، وكان أكثر أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين تجاراً، لم تلههم التجارة والبيع عن ذكر الله لحسن النية لله، ولم تمنعهم عن الصلاة، لأنهم وهم فى سعيهم وتجارتهم ينتظرون الصلاة بعد الصلاة، والمسلم فى الصلاة ما انتظر، ومن تظاهر بالدين ليتزوج امرأة أو يصيب دنيا، كانت هجرته إلى مقصده الذى نواه، ولم يؤجر على الوسيلة التى اتخذها لنيل مقصده، مصداق قوله ﷺ: (ومن كانت

هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). وقد يرى بعض من لا علم له بشعب الإيمان، أن العمل للدنيا ينقص السالك فى طريق الله، ويشغل قلبه عن التوجه إلى جناب القدس الأعلى، مع أنه صح فى الحديث الشريف أن (محل نظر الرب من العبد قلبه). ومن وجه قلبه إلى الله بإخلاص النية، كان مهاجراً إلى الله وإلى رسوله، ولو كان فى بيع وتجارة أو صناعة وزراعة، أو إمارة أو جهاد، أو متبتلاً فى محرابه، لا فرق عند الله بعد عمارة القلوب وتجميلها بإخلاص من النية بين الزاهد المتقشف، والأمير على منصته، مادام كل واحد منهما أتى الله بقلب سليم، وحسبنا حجة على ذلك أن الصديق الأكبر والخليفة بعد رسول الله ﷺ والإمام الأول للمسلمين، كان يحمل الخُرْجَ على كتفه وهو خليفة رسول الله ﷺ ويمشى به فى الأسواق للتجارة، ولم يكن ذلك ينقص من مقامه العلى، ولا من حاله الروحانى، والعالم فى الدنيا الذى يُطعم الزهاد والعباد المتجردين من الدنيا أعبد منهم. قال ﷺ: (الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله). ولا يتحقق النفع لوجهه الأكمل إلا بعلم تزكو به النفوس وحكمة تتجمل بها الأرواح، أو مال يستعين به الفقير، وتؤسس به بيوت الله، ومعاهد العلم والمستشفيات، وتشيد به المدارس، ويعان به الدعاة إلى الخير، وكفى بعمل أصحاب رسول الله ﷺ حجة، فإن رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، فتوجه سيد من المهاجرين إلى منزل أخيه من الأنصار، فقال الأنصارى له: يا أخى إن لى زوجتين وهاهما فاختار لك زوجة منهما، ولى كذا من الخيل لك النصف ولى النصف، فقال المهاجر: بارك الله لك فى أهلك ومالك ونخلك، دلنى على السوق، فدله على السوق فخرج ورجع معه دراهم اكتسبها من البيع والشراء، (وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله، فقال له ألك حاجة فى بيتك؟ فقال: نعم لى شملة يا رسول الله، فقال: أحضرها، فأحضرها، فقال رسول الله ﷺ من يشترى هذه؟ فقومت بدرهم، ثم قبلها الآخر بدرهم ونصف، ثم قبلها الآخر بدرهمين، فباعها له رسول الله ﷺ، وأعطى الرجل الدرهمين، وقال: اشتر قدوماً وخشبة وحبلاً، فاشترى القدوم والخشبة والحبل، فأخذ رسول الله ﷺ الخشبة وأصلح وضعها فى القدوم، وقال له: اخرج فاحتطب خير لك، فخرج واحتطب وباعها بدرهمين وصار يحتطب ويبيع حتى صار ذا مال).

كل هذه الأدلة الجلية تؤيد أن المسلم يجب أن يكون عزيز النفس، إن استطاع ألا يرى

لأحد عليه نعمة سوى الله فعل، حتى لا يذل لغير الله، ولا يفتقر لغير الله، ولا يكون هذا العجز حقيقة إلا بيقين يباشر القلوب، وعلم يبين له حقيقة نفسه، وكشف يبين له أنه عضو عامل فى الجسد الإسلامى، وجزء متمم للكل الإسلامى، وبذلك يسارع إلى الخيرات، ويقوم مجاهداً نفسه وهواه فى ذات الله تعالى، مجملاً بحلل الخلافة عند ربه، ينافس فيما يبقى، يجمع ما لابد منه من الدنيا، ويبذله فى نيل الفوز برضوان الله بعمل الخير لعباد الله، ومن نسى نصيبه من الدنيا نسى نصيبه من الآخرة من باب أولى. إذا تقرر ذلك، فالواجب على كل مسلم ما دام فى جسد يحتاج إلى طعام وشراب ولباس، وبالأولى إن كان مطالباً بحقوق عليه لوالدين وأولاد وزوجة، أن يقوم عاملاً لجلب ما لابد منه، مخلصاً النية فى العمل لله، ناهجاً على الصراط المستقيم، مؤدياً ما وجب عليه من العبادة، وما رغب فيه من أعمال البر، وبذلك يكون مسلماً حقاً فتكون حركاته وسكناته فى محرابه مصلياً، أو فى السوق متاجراً، أو فى زراعته عاملاً عبادة لله تعالى، وبذلك يكون كل فرد من أفراد المسلمين كنز لجميع المسلمين، فالعمل فى الدنيا مع حسن النية هو عمل لله تعالى، ولرسول الله ﷺ، وللدار الآخرة، وهو عز فى الدنيا، وسيادة بها، وكفى المسلم شرفاً أن يكون عزيزاً فى الدنيا، منعماً بالنعيم المقيم فى الدنيا والآخرة، والله أسأل أن يوقظ قلوب أخوتى المؤمنين من رقدة الغفلة، حتى يعملوا بكل شعب الإيمان، كما قال ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة). إنه مجيب الدعاء.

حقيقة الدنيا والآخرة

الدنيا والآخرة هما داران مختلفان اسماً ومعنى، أحدهما كالصدف وهى الدنيا، والأخرى كالدُّرِّ وهى الآخرة، ولكل منهما أهل وبنون، ولكل نوع منهما صفات وأخلاق وسجايا وأعمال.

أولاً حقيقة الدنيا

مشتقه من الدنو وهو القرب، وحقيقتها أنها تصاريف أمور تجرى على الإنسان، اقتضاها وجوده مضطراً محتاجاً إلى ضروريات، وكماليات، مقهوراً بما فيه من القوى، وما هو خارج عنه، من يوم أن تلده أمه إلى أن يموت، وولادة أمه هى الولادة الجسدية، بعد أن أخذ دور

كماله فى الرحم، والموت هو الولادة النفسانية، بعد أن حصل كماله النفسانى فى بطن أمه الدنيا، وكما أن بعض الناس يولدون على نقص، أو يكونون مشوهين بعدم كمالهم فى الرحم فكذلك الإنسان الذى يعوقه عن كماله النفسانى فى الدنيا عائق، من طمع أو حرص، أو حسد أو جهالة، يموت ناقصاً، لجهله بنفسه وبربه سبحانه وتعالى، وبذلك يستحق العذاب يوم القيامة، كما يحصل من الألم والمشقة لمن ولد ناقصاً من بطن أمه.

ثانياً حقيقة الآخرة

هى مشتقة من التأخر، وهى تصاريف أمور تجرى على الإنسان من وقت مفارقة النفس الجسد، إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين، فإن فارقت النفس الجسد كاملة، بما حصلته من العلوم النافعة، وما اكتسبته من العبادات والأعمال الصالحة، وما أبقته من الآثار المفيدة فازت بالنعيم المقيم، فى فردوس الله الأعلى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ الكهف ١٠٧.

ثالثاً هل كل الناس يعلمون حقيقة الآخرة؟

أكثر الناس من أهل الأديان وغيرهم يصدقون بالآخرة، ويؤمنون بها، ولا يعرفون حقيقتها، ولا مقدار ما فيها من المسرات والزينات، والجمال والكمال، وتوفيرها بحالة فوق تصور العقول، ويجهلون متى وقت الوصول إليها، وإن جميع من حصلوا العلوم العقلية، وارتضت أنفسهم بها وإن صدقوا بالآخرة التى هى مقر الأرواح، لكنهم جهلوا كل الجهل طريقها الموصلة إليها، وأخطئوا الوسائل المقربة إليها، ومن قرأ كتب الفلاسفة يعلم أنهم سقطوا إلى هاوية الحضيض الأسفل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ النور ٤٠، وقد انمسخ الجاهل فهوى إلى أسفل السافلين، هوياً سجل به على نفسه اللعنة والمقت، وهم الذين مسخهم الله قردة وخنازير، وإن كانوا على صورة الإنسان، كالماديين والدهريين والحلوليين، ولا عجب! فإن من لم يمنحه الله العيون الإنسانية التى تشهد آيات الله فى ملكه وملكوته، كيف يشهد ما يشهده الإنسان؟ فإن حكم على نفسه أنه فى الأصل قرد أو نسناس فهو صادق، وحقيقة هو أدنى من ذلك، قال الله تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان ٤٤، كما يرى المرور (مسلوب العقل) نفسه أنه ملك، وهو أدنى

الصعاليك، أو أنه نبى أو إله، ومثل هؤلاء لا يؤمنون بالآخرة ولا يعرفونها. وسنبين بمشيئة الله تعالى فساد عقيدة هؤلاء القوم، وإن كانوا أحقر وأذل من أن يعتنى بآرائهم من له مسحة عقل.

رابعاً هل الناس مؤهلون للدنيا والآخرة؟

إن الناس كلهم أبناء للدنيا والآخرة معاً، ولكن الله قدر فى أزله أن يجعلهم نوعين فى الدنيا والآخرة، سعداء وأشقياء كما قال سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ هود ١٠٥.

خامساً من هم أشقياء الدنيا وسعداؤها؟

كل الناس يعلمون من هو السعيد فى الدنيا ومن هو الشقى، لأنهم حصروا السعادة فى العافية، والمأكل، والمشرب، والمنكح، وما يعين عليه، وجعلوا الشقاء ضد ذلك، وتلك السعادة هى سعادة البهائم الرُتع، ولا نحب تفصيلها لعلم الناس بها، وتحصيلهم عليها، وتلك السعادة لا تستلزمه السعادة الباقية إلا إذا أعان الله أهلها على ما يحبه ويرضاه.

أبجد وهمة إقبالى ... لا ولكن فضل بمحض نوالي
فحدودى سور يميز فرقاً ... خصصوا بالقبول أو بالضلال
نسب تظهر المراتب فيها ... عن تجلى الأسماء بنور المثال
ففريق بمقتضاها شقى ... وفريق سعدوا بنيل الوصال
حكمة أشرقت شموس خفاها ... لخصوص الأفراد والأبدال
قد أضاءت أنوارها لقلوب ... شهدت فى الكيان أى جلالى
قد أتت ربها بنور مفاض ... من تجلى أسمائه بالجمال

الزهد وحقيقته

أولاً الزهد

فى اللغة هو الرغبة عن شئ بإخراجه من اليد والقلب معاً، أو من القلب فقط.

أما معناه عند أهل الطريق فهو الفرار عما يشغل القلب من الغواشى الكونية التى تحجبه عن شهود أنوار الآخرة، بإرادة الدنيا خاصة إرادة اختيار، فينغمس بكليته انغماساً يدل على عدم تصديقه بالآخرة؛ لأن المصدق بالآخرة لا يرضى بها بديلاً، فكيف ينساها بغيرها؟ وعلوم الزهد يجب أن تتلقى من العارف الربانى الحى، العالم بمراحل الطريق، ومقادير النفوس، وأمراض القلوب، وإنى أرى كثيراً من الناس يحجبهم الحظ والهوى عن البحث عن المرشد الكامل، بل وتحجبهم المعاصرة عن طلب العلم النافع، والمعاصرة حجاب، فيقرءون كتب السابقين فى علوم اليقين، فتقصر أفهامهم عن دركها، وعقولهم عن تلقيها، وأنفسهم عن مشاهدة أسرارها، وأبدانهم عن القيام بها، ولكنهم إذا صحبوا المرشد، ينالون بصحبته فهم تلك العلوم بقدر استعدادهم، ويتلقون منه بقدر أعرافهم.

الزهد للسالكين فيما حرم الله تعالى، فإذا تمتع السالك بنعم الله المباحة له، فهو الزهد فى مقامه، فإذا زكى الله نفسه من الميل إلى شهواته المحظورة عليه، بين له المرشد طريق الزهد فى الدنيا.

والدنيا يا بنى بينها الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ﴾ الحديد٢٠، وفصل سبحانه هذا الإجمال بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ آل عمران ١٤، فإذا تميزت له حقيقة الدنيا وانكشف له الغطاء عنها، وأخرج الله حُبَّها من قلبه، وأقبل عاملا لله مخلصاً، وأقامه الله ملكاً على الأرض، ومنحه الله كلمة ﴿كُن﴾ يتصرف بها فيما يحبه الله تعالى، فهذا ليس من أهل الدنيا، وإنما هو من أهل الآخرة، فإذا تحقق بالزهد فى الدنيا، ولحظ بعين سره جمال الآخرة شهوداً

لا علماً، ظهرت له الدنيا جلية، فعلم مقدارها فى جانب الآخرة، فأراد الآخرة فى الدنيا، عاملاً فيها بمحاب الله ومراضيه، وليس مرادى بالزهد فى المباح أن يترك ما لابد للإنسان منه من عمل فى الدنيا، إنما أقصد بذلك أن يكون له فى كل عمل من أعمال الدنيا رعاية، ويبتغى بها رضوان الله الأكبر، فيأكل ليقوى على الجهاد والطاعات، ويلبس ليستر عورته ويحفظ صحته، ويتزوج ليتشبه برسول الله ﷺ، ويدخر المال وما لابد منه ليفرغ قلبه، وليكون خزانة من خزائن الله تعالى فلا يأكل للذة ولا ينكح لشهوة، ولا يدخر لتكاثر، فإذا زهد فى المباح، وتمكن فى هذا المقام، أسمعه المرشد علم زهده فى نفسه، ومعنى زهده فى نفسه، أن يسلم لله تسليماً، فلا ينازع الله تعالى فى حكمه الشرعى، ولا فى حكمه القدرى، وإنى أعلم أن للإنسان شُحاً وهوى ورأياً، وأعلم أن تلك المعانى لا تفارق الإنسان، وزهده فى نفسه هنا بدايته ألا يطيع شُحه، بل يجاهد نفسه فى مخالفة شُحه وألا يتبع هواه، بل يخالفه فى طاعة الله ورسول الله ﷺ، وأن لا يعجب برأيه، بل يخالفه تسليماً لله ولرسوله ﷺ وللمرشد القائم للحق بالحق، وهو مقام الرضا عن الله تعالى، ثم يترقى فى مقام الزهد فى نفسه إلى أن يسمع من المرشد حقيقة نشأته الأولى، فتتضح له حقيقته، ويعلم أنه من طين أو ماء مهين، ويلحظ بعين سره ما تفضل الله به عليه من جماله العلى، فجعله سميعاً بصيراً، مؤهلاً للخير، قابلاً للفيض القدسى أو المقدس، ولديها يعلم سر الأمانة، ويتحقق أنه قبل انكشاف هذا المقام له، كان ظلوماً جهولاً، ويسمع الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ النساء ٥٨.

وفى هذا المقام تقوى الحيرة، وتستعر نار المحبة، وتحن الروح إلى مجانسها، وينسلخ من ملابس الغرور إلى لباس الإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ الأعراف ٢٦، فيتلطف له المرشد، ويمزج له هذا الشراب بطهور السياحة الملكوتية، فتسيح النفس فى الملكوت الأعلى بمجانسها، وترجع إلى الجسم مقتبسة قبس الأنوار حتى تتمكن، فيقوى الشهود حتى تشهد آثار الرب جل جلاله فى القلب، وفى الكون المحيط بها فيحصل لها الأُنس فى جسمها مشاهدة ما فيه من عجائب الآيات، فتشرق أنواره على الجوارح المجترحة التى هى قوى الحس، فتبصر العين آيات الله فى الكائنات، وتصغى الأذن إلى تسبيح الكون، وتبسط اليد بالعطية، وتطهر البطن من الخطايا، ويحفظ الفرج من المخالفات والقلب من لمة الشيطان.

وهذا ما يسمونه الفناء فى مقام الزهد، وهو التخلى عن مقتضيات الآدمية، حتى تُطفأ نار الإبليسية، ويزول دخان البشرية، ولديها يكون الزاهد من عبيد الله المخصوصين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ الحجر ٤٢، فإذا تمكن من هذا المقام أذاقه المرشد رحيق التوحيد بالتوحيد، فى مقام التجريد والتفريد، فيفرد الحق جل جلاله بالقصد، ويفرد رسول الله ﷺ بالاتباع دون غيره، فيزهد فى الآخرة بعد زهده فى نفسه، فراراً إلى الله تعالى، وتنزيهاً لقلبه أن يطلب غير الله تعالى، ولسره أن يواجه غير الله تعالى، ولروحه أن تتحد بالخلق بعد إشرافها على الحق، ثم يزهد فى زهده، حتى يرغب فيما رغبه الله فيه، فيحب الجنة، لأن الله تعالى رغبه فيها، فيكون أحبها لأنه سبحانه وعد عباده الصالحين رؤية وجهه الكريم فى وطنهم الباقى (الجنة)، وهناك أسرار لا تباح بالعبارة، ولا تعلم بالإشارة تتلقاها الأرواح من نتف ينطق بها المرشد الكامل، مقهوراً فى تجلى تلك الحقائق، تقتبس من وميض بروقها الأرواح الطاهرة، هذا وإن طالب الله تعالى لا يضع قدمه فى طريق الله تعالى إلا بعد أن يسلم الأمانة لأهلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ التوبة ١١١.

ثانياً حقيقة الزهد

ليس الزاهد فى الدنيا من زهد فيها، وقد أعرضت عنه ونفرت منه، ولم تمكنه من متاعها، وضاقت عليه مع اتساعها، وهو مضطر على ذلك، لظهور عسرته ونفاد يسرته، وإنما الزاهد فى الدنيا من أقبلت عليه، وحشدت فوائدها إليه، وحسنت له فى ذاتها، وأمكنته من لذاتها فأعرض عنها وزهد فيها. فالزهد على هذا المعنى، لا يقتضى أن يهمل الإنسان وجوه المكاسب، وأن يقتصر على الدون من المطالب، ولكن الزاهد هو من يعيش كما يعيش الناس ويعمل عملهم، ويسلك فى محاولاته كل السبل المؤدية للنجاح فيها، فإذا حصلت له ثروة، وكان يحب الزهد أمكنه أن يكون بإزائها على ما يحب.

فرى يا نفس من محيط الكيان ... فهو دار الفنا ودار الهوان
شيد الجاهلون فيه بيوتاً ... شامخات لراحة الأبدان
زينوها بالحصو والكلس حتى ... جعلوها فى رونق كالجمان
أيها الدور قد سكنت زماناً ... فى زهو فى بهجة فى تهان
لم يخافوا ريب الزمان ولكن ... دمر الكل حادثات الزمان

الفرق بين أحوال الصوفية الهداة ومسالك المتصوفة الغلاه

مشروعية ترك الأسباب والعكوف فى الزوايا

إن ترك الأسباب فى السلوك ثقة بمسبب الأسباب، وتوكلاً على الله تعالى، إذ لم يكن للمريد عائلة يتعين السعى عليها، سبيل من سبل مجاهدة النفس، وكان فى مسجد رسول الله ﷺ كثيرون من أهل الصُفة، تركوا الأسباب توكلاً على الله تعالى، وعكوفاً على طلب العلم، وبهم رضى الله عنهم انتشر الدين وأحكامه، مثل أبى هريرة، وسلمان، وأبى ذر الغفارى، وصهيب، وسيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكثيرون رضى الله عنا وعنهم، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ.

السياحة للمريد والخروج من العوائد والمألوفات وترك الكلام جائز شرعاً

أما السياحة للمريد فأمر محبوب لطلب العلم، ولابتذال نفسه، وتحمل الغربة تزكية لها، وخروج من عوائده ومألوفاته، وهى سُنة السلف الصالح رضى الله عنهم، أما صمت بعضهم وترك الكلام، فهو منهج مناهج أهل الصفا، المحافظين على أنفسهم، قال رسول الله ﷺ: (وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم). هذا إذا كان الصامت مشغولاً بذكر الله تعالى، واستحضار عظمته، فراراً من الخلق، حتى يتعين عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد تزكية نفسه.

لبس الثياب الرثة مستنبط من سُنن أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ

وأما لبس الثياب الرثة، والرضا بالقليل من اللباس والفرش، فهذا سبيل من سبل الزهاد المحسنين، الذين حقروا الدنيا وزهدوا فيها، وهو من سُنن أصحاب رسول الله ﷺ وعليهم.

❊ ❊ ❊

سند تحريم الخلوة بالنساء الأجانب

أما الخلوة بالنساء، فلا تتحقق حرمتها شرعاً إلا إذا خلا رجل بامرأة أجنبية، قال رسول الله ﷺ: (ما خلا أجنبى بأجنبية إلا كان الشيطان ثالثهما)، والبشرية لا تفارق الإنسان مادام حياً، ومن اختلى بأجنبية مُستحلاً ذلك كفر، فكيف من أهل الطريق؟ ولكن إذا وجد رجل جمله الله تعالى بالعلم والخشية، فاجتمع معه نساء يسألنه عن دينهم فى غير خلوة، فذلك مكروه، وهو مباح، وقد يتعين لطلب العلم، وإلا فالنساء إذا لم يعلمهن أزواجهن ولا آبائهن، وهن مطالبات بفروع الشريعة، كيف يكون حالهن يوم القيامة إذا اتهمناهن فى طلب ما أوجبه الله عليهن، وإنى أرى من الواجب شرعاً على الوالد والزوج أن يعلم ابنته وزوجته ما لابد لها منه من النساء إن أمكن، أو بأن يسأل هو العالم عما يلزم ابنته وزوجته ويعلمهن. والوقوع فى مكروه مع تحصيل واجب ليس كترك المكروه والواجب معاً، وكان نساء الصحابة رضى الله عنهم يسألن أمهات المؤمنين عما يجب عليهن.

موقف الدين من ترك الصلاة والصوم

بقى ترك الصلاة والصوم: تعلم يا ولدى إن الصلاة مقصد ليست وسيلة، فإنها وجبت علينا بكلمة الله تعالى، وعمل رسول الله ﷺ ، وأن أهل الجهالة يظنون أن الصلاة وسيلة لغيرها، ومن جهلهم يدعون أنهم بلغوا درجة الشهود أو منزلة الفناء، فبلغوا المقصود وتركوا الوسيلة، والصلاة مقصودة متعينة على المسلم، من بلوغه إلى آخر نفس من حياته، لأنها جمعت أنواع عبادات العوالم كلها، وأسرار الطريق كلها، قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، فالعبادة مقصد، والاستعانة وسيلة، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات ٥٦، فحكمة وجود الإنسان فى وطن الكون عبادة الله تعالى، والصلاة جمعت أنواع عبادات الكائنات، وأسرار الطريق كما تقدم.

أما أنواع عبادات العوالم كلها؛ فلأن القيام فيها عبادات الملائكة، ولأن الركوع عبادات الحيوانات المسخرة للإنسان بقدرة الله تعالى، ولأن السجود عبادات النبات الممتد على الأرض المسخر لنفع الإنسان، ولأن الجلوس عبادات الجمادات الثابتة لنفع الإنسان بإحسان الله، ولأن التفات الرأس فى السلام عبادات الأفلاك فى دورانها، والله جل جلاله

سخر لنا كل تلك العوالم، وأمرنا بالشكر عليها، فالصلاة شكر لله على تسخير تلك العوالم، علويها وسفليها.

أما كون الصلاة جامعة لأسرار الطريق فلأن الطهارة تجريد السر عما سوى الله تعالى، ولأن التكبيرة محو ما سوى الله تعالى، ولأن استقبال الكعبة إشارة إلى الاقتداء بالمرشد الكامل، ولأن قراءة القرآن إشارة إلى الحضور مع الله، والسماع منه، وأن الركوع خشوع النفس والحس والجسم والعقل لله تعالى، ولأن السجود على التراب رجوع إلى نشأته الأولى ليعلم العبد قدره أمام الله تعالى، ولأن التشهد أنس بالله تعالى، ولأن السلام وداع للدنيا والآخرة وإقبال على الله تعالى بالكلية.

فمن ترك الصلاة معتقداً إباحة تركها كفر، ومن تركها متأولاً أخطأ الصراط المستقيم، ومن تركها بعد سلب القوة التى بها التكليف فهذا لا يكلف، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة ٢٨٦. وإنى أقول إن تارك الصلاة استغراقاً فى مشاهد التوحيد مخطئ، ومن ترك رعاية شهود التوحيد فى عبادته محجوب، والصراط المستقيم حفظ رتبة العبودية مع رعاية شهود التوحيد، والقرآن حجة، قال الله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ التوبة ١٢٣، ثم قال سبحانه وتعالى بعد أن قاتلناهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الأنفال ١٧.

أما الذين يمشون عراة، فإن غابوا عن أنفسهم وعن الخلق، وخرجوا هائمين على وجوههم من غير أن يقصدوا شخصاً معيناً يجلسون فى بيته، ولا يأنسون بأحد لاستغراقهم فى الغيبة، فإن لهم العذر، ولكنهم فى مرض روحانى تجب معالجتهم، ويجب على من رآهم أن يرسلهم إلى المستشفى، مستشفى المجاذيب، أو يحبسهم فى حجرة مظلمة ويقلل أغذيتهم، ويبعد عنهم ما اعتادوا عليه من طعام وشراب، ومذاكرات وذكر وسماع للأغانى، وإن تعروا من الثياب مع التمييز بين الصاحب والعدو، والأُنس بمن يعرفونه قبل التعرى، والوحشة ممن ينكرونه قبله، فهم أعوان الشياطين، وأبواب الفتنة على المسلمين.

تحذير للهداة من مسلك دعاة الجهالة الغلاة

وكثير من الناس يقوى الشيطان عليهم حتى يوقعهم فى ترك الصلاة، والعرى وإباحة ما حرم الله عناداً للحق، أو حيلة لجلب الدنيا بطريق يكرهها الله، وعمل يغضب الله تعالى، وأهل الصفاء مع الله تعالى، غلبت عليهم الغيبة، وقهرهم الحال الناتجة عن مقامات اليقين، ومشاهد التوحيد، يفرون من أنفسهم، فكيف يأنسون بغيرهم من الخلق؟ والميزان فى هذا هو الأستاذ المرشد الكامل، فإذا أقام مريداً فى مجاهدة أو رياضة، وغلبه الوجد أو الحال، مزج شرابه، فإن قهره حاله عطف عليه وعذره.

أما من لم يقمهم المرشد بل أقاموا أنفسهم، أو التفتوا عن المرشد ميلاً إلى حظوظهم وأهوائهم، وقهرهم الحال، فهو مرض روحانى، فإن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا على صراطه المستقيم وشرعه القويم، وكم أفسد السماع نفوساً نجسة، وقد أفسد الزار ببلاد مصر أعراضاً وعقولاً، والسماع يلزم أن يُرَد عنه من لم يحصل العلوم الشرعية والآداب السنية.

ومن أباح السماع للجهلاء أفسد عليهم دينهم ودنياهم وعقولهم، ومن أقام نفسه طبيباً مع الجهل بالطب فعليه الدية، فنحن نقوم لله تعالى بما أمرنا به، مشاهدين أنه سبحانه الموفق المعين الهادى المنعم، المتفضل، فنستغفره بعد الصلاة مما حصل منا من الغفلة فى الرعاية.

ونحمده سبحانه ونثنى عليه لما تفضل به علينا من التوفيق والهداية والعناية لما أمر، وإن مسلماً يعتقد أن الله أمر فى كتابه العزيز بالصلاة، وأن رسول الله ﷺ أمر بها، وقام بعملها ملازماً محافظاً عليها، وكان آخر عمله من الدنيا أنه خرج للصلاة، يحمله على والعباس صلوات الله عليه وعليهم، وهو يجر رجليه حتى أدخلاه المحراب، وأبو بكر يصلى بالناس فتنحى أبو بكر وصلى رسول الله ﷺ، ثم حُمل إلى فراشه فلحق بالرفيق الأعلى ﷺ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب لما أن طعنه لؤلؤة – عليه لعنة الله – وآذنه المؤذن لصلاة الصبح، فقال: من يصلى بالناس يا أمير المؤمنين؟ فقال: هلك عمر إن كان فيه نفس ويؤخر صلاة الجماعة، ثم حُمِلَ على الصلاة وصلى بالناس، ثم حُمِلَ إلى فراشه وفارق الدنيا لجوار رسول الله ﷺ، وآخر عمله من الدنيا الصلاة.

هذا وليس بمسلم من يقتدى برجل يأمره بمخالفة أمر الله وعمل رسول الله ويقتدى به، ولكن الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. فكيف تعلم هذا ولا تدفعه بيدك أو بلسانك؟ هذا وإنى كما قدمت لك، إذا رأيت رجلاً سلب الله عقله حتى صار لا يميز بين التمرة والجمرة ولا بين التبر والتراب، وترك العمل الواجب، فارحمه فإن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة ٢٨٦، أما الأدعياء فكل مؤمن برئ منهم، وإنى والحمد لله كما أعلمه منى أكره نفسى إذا خالفت سنة فضلاً عن فريضة، والله تعالى أسأل أن يمنحنى وإخوتى والمسلمين جميعاً التوبة والإنابة إلى الحق فإنه هو التواب الرحيم، ويحب سبحانه التوابين.

وهنا نحث إخواننا فى جميع البلاد أن يغاروا لله سبحانه وتعالى ولسُنة رسول الله ﷺ، وينبهوا المخالفين إلى التوبة، والله هو التواب العفو الغفور جل جلاله.

نصيحة لأهل الطريق

الحمد لله الهادى إلى أقوم طريق، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وبعد:

فلجميع أحبابى فى الله تعالى، وفى رسوله ﷺ، تعلمون أيدنى الله وإياكم بروح منه، أننا إنما اجتمعنا للحق وتحابينا فى الله، لنحصل العلم النافع ونقوم بالعمل النافع، وتعلمون يا أحبابى أنه لا نجاة إلا باتباع سنة رسول الله ﷺ، وإن الأولياء إنما أظهرهم الله تعالى لتأييد السُنة، وأن الولىّ ولو أكرمه الله تعالى بإحياء الموتى ليس له أن يغير فى الشريعة، فإن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة ٣، وأن كل من خالف السنة مضل ممقوت ولو أظهر خوارق العادات، فإن الله تعالى لا يتخذ من خالف سُنة نبيه ولياً، وكم من ساحر خبيث ومستدرج عدو لله، أفسد العقائد وأحل ما حرمه الله، وإنى يا أحبابى فى الله أنصحكم لله ولرسوله ﷺ، إنكم إذا رأيتم منى أمراً منكراً أو نهياً عن معروف أو إباحة لمحرم أو ارتكاب كبيرة تُعلم من الدين بالضرورة أن تتبرءوا منى، وأن لى يا أحبابى فى معاصى الطاعات ما يشغلنى عن ارتكاب معاصى المخالفات، وقد انتشر بينكم يا أحبابى كثير من الشياطين، الذين ينتسبون إلى طريقى

لإضلال المهتدين، لسلب الأموال وفساد الأعراض، غير خائفين من عذاب الله، ولا من غضب رسول الله ﷺ، فأنصحكم ألا تقبلوا منهم أحداً يدخل عليكم إلا إذا كان بيده سند صحيح بالطريق أو إجازة منى بإمضائى، أو يرسل من قبلى ممن تعلمون حُسن ظنى به، والله تعالى أسأل أن يحفظكم من الأعداء المنتسبون لهذا الطريق، وأن يؤيدنى وإياكم بروحانية رسول الله ﷺ. والله على كل شئ قدير.

هو الشرع حصن الأمن سر وصولى ... به كشف إجمالى به تفصيلى
صراط عليه المفردون تفردوا ... ومعراج أهل الحب والتأويل
هو الحبل حبل الله مد لأهله ... به اعتصموا بمعية المقبول
ومن جاوز الشرع الشريف هوى به ... إلى السفل من غاو وكل جهول
فشاهد بحصن الشرع آياً علية ... تلوح لك الأنوار فى التنزيل
تحصن بحصن الشرع واشهد مشاهدا ... تنال بها الزلفى بخير وصول
ومن راحه الصافى الطهور تناولن ... يواليك وهاب بنور سبيل
تلوح لك الأسرار فيه تنزلا ... تحاط بوجه ظاهر وجميل
بروحك يسرى منعم متفضل ... إلي عالم الملكوت حيث وصولى
وحصن شهودك بالشريعة سالكاً ... فحبل الهدى من نوره الموصول
وحصن وصولك باليقين تأدباً ... فهفوة أهل الحب بالتحويل
وفى الوصول إن نفسى على القدس أشرفت ... فأدبى لشرع المصطفي مأمولى
هو الشرع لا يخفيه كشف ومشهد ... وإجماله عند الصفا تفصيلى
هو الحبل حبل الله فاعتصموا به ... مخالفة لمعاند وجهول
إلى التوب سارع إن هفوت تأدباً ... مخالفة للوهم والمعقول
ولا تلتفت للعقل فالشرع حاكم ... على العقل تحقيقا بلا تأويل
وتابع رسول الله حباً ورغبةً ... وخير الهدى فى محكم التنزيل

❊ ❊ ❊

أصول آداب أهل الكمال من السادة الصوفية

وآل العزائم من أهل المقامات العلية

الأدب معلوم عند أهل الدنيا، وهو تحصيل ما به يكون الإنسان نابه القدر مؤهلاً لمجالسة الملوك، ولتولى أعمالهم الخاصة والعامة، ولا يبلغ تلك الدرجة منهم إلا من حصل أخبار السابقين وحوادثهم وآدابهم وحفظ أشعارهم وحكمهم وخطبهم وأنواع سياستهم فى الحروب والمعاهدات وغير ذلك، وهذا علم اعتنى به أهل الدنيا، لأنه سلم الرقى إلى نيل قصودهم الفانية، ونحن نتكلم فى آداب آل العزائم، وأهل العزائم إما مجتهدون أو سائرون أو واصلون.

آداب المجتهدين من أهل العزائم

المجتهدون من أهل العزائم أهل الرياضات والمجاهدات، المسارعون إلى الانتظام فى سلك الطريق والباحثون عن الرفيق، وآدابهم غض البصر عما حظر عليه الشرع الشريف مما يجدد شهوة، أو ينتج احتقاراً وانتقاداً أو اعتراضاً مما يلفت القلب عما هو مول وجهه إليه، فإن كثيراً من أهل الجهاد مرضت قلوبهم بسبب إطلاق النظر فى المباحات، حتى يلقى بهم فى مهاوى النظر إلى المحرمات، ثم كف الأذى باللسان والجنان واليد، وحفظها من إحداث ما لا إثم فيه من الشبهات، بحسب رتبة الإنسان، فإن التساهل فى صغائر الأمور يوقع فى كبائرها، ومعظم النار من مستصغر الشرر، وكم وقع المجتهد فى كبائر بسبب نظرة أو كلمة، أو مد يد، وكم من نظرة أوجبت حسرة، أو كلمة أهرقت دماً.

جراحات السنان لها التئام ولا يلتأم ما جرح اللسان

ثم يقتل نفسه بسيف مخالفتها، ويكبح جماحها بالرياضة والمجاهدة، بشرط أن يكون مأذوناً له فيها من المرشد، مما يوافق السُنة المطهرة، وبشرط أن يكون المرشد كاملاً ممثلاً للصورة المحمدية علماً وعرفاناً ومحافظة على الشريعة، فإن المرشد طبيب الأرواح، والطبيب

إن لم يكن عالماً أضر علاجه، وفى الحكمة: المتطبب إذا قتل فهو ضامن، وقاتل النفس أكبر عند الله من قاتل الجسم.

آداب السائرين من أهل العزائم نوعان

السائر من أهل العزائم هو من انتظم فى عقد الأخوة فى الله بمعناها وعاهد الله ورسوله والمرشد على قبول الحق، والعمل به والمسارعة إلى نيل فضل الله ورضوانه، والمنافسة فى الفوز بالتشبه برسول الله ﷺ.

النوع الأول: التروك

ترك النظر للأغيار، وترك الركون إلى غير الله تعالى، وترك الاستماع فى المباح بحبس جميع الجوارح حبساً يجعلها تقف عند ما أحله الله لها مع الحذر من الوقوع فى الوسعة المضرة بالسائرين.

النوع الثانى: الأعمال

تبتدئ أولاً بتصفية السر من الأكدار الشاغلة للقلب عن الإقبال على الرب سبحانه، حتى يطمئن القلب بذكر الله، وملازمة ذكر الله بجميع القلب وخشوعه واستحضار معانى ألفاظ الذكر، ورعاية حضور المذكور جل جلاله، قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى:(أنا جليس من ذكرنى). وقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ البقرة ١٥٢، ثم يوقظ الفكر، ليقوم بوظيفته فيتفكر فى بدائع صنع الله تعالى بالاعتبار والمراقبة حتى يحصل له الحياء من الملك الجبار، الذى سخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه.

آداب الواصلين من أهل العزائم نوعان

الواصل هو من فاز بمعية رسول الله ﷺ بأوصافها المذكورة فى آخر الفتح، فتفضل الله عليه بمعيته سبحانه، فكان مع رسول الله ﷺ اتحاداً بالسمع والطاعة، والانقياد والعمل بالعزائم قلباً وجسماً، وكان مع الله وجداً وشهوداً، فلا يرى نفسه خالياً أبداً، وإن كان فى كهف فى جوف الليل لرعايته لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ الحديد ٤.

الأدب الأول: كتم الأسرار

كتم الأسرار التى ألهموها من الله تعالى غيرة عليها من أهل الجهالة الذين لم يقع بهم العلم على عين اليقين، فيفهمونها كما يفهمون كلام الناس بعضهم لبعض، فيقعون فى الشُبه والبدع المضلة، ومحافظة عليها من المُدعين العلم، الذين حجب قلوبهم الجدل والبحث، وعلم الكلام وعلوم الأدلة العقلية التى وصفوها بدعة فى الدين، وإذا سمعوها أنكروها قال رسول الله ﷺ: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله تعالى). ومن أفشى تلك الأسرار أوقع الناس فى اللبس، وأضر نفسه بمعاداة أهل العلم المغرورين بجهلهم، أو أضرها بتسليم أهل الجهل له، وكتم الأسرار أول ركن من أركان الواصلين.

الأدب الثانى: مشاهد الأنوار

والأنوار إما النظر إلى الآيات فى الكائنات، أو شهود معانى الصفات التى قامت بها الكائنات، ثم جولة الفكر فى الغيب المصون بالاستبصار، مع عرض الأحوال على المرشد الكامل بدقة، خوفاً من نزوع النفس إلى شهوة خفية أو رئاسة جلية أو هوى يخفى على الواصل، ثم الأنس بالحق فى كل شئ، وفى حالة الأنس تجب رعاية أدب العبد مع الرب، حتى لا يخرجه الأنس إلى الشطح، فيقع فى سوء الأدب مع رسول الله ﷺ بنظره أن وارده مقدم على وصايا رسول الله ﷺ وأحكام شريعته، فيقع فى أحبولة إبليس، وينحط من الأفق الأعلى، على الدرك الأسفل أعاذنى الله وإخوانى من الغرور بالمقامات، ثم الفهم فى دقائق الأسرار مع الخشية من الملك الجبار، وهذه هى أصول أهل الكمال من السادة الصوفية، وآل العزائم من أهل المقامات العلية.

الأدب العام

الأدب نوعان: أدب حسى وأدب معنوى

فالأدب الحسى أدب الجوارح، والأدب المعنوى أدب القلوب، ولا تتأدب الجوارح إلا إذا تأدبت القلوب، ومتى رأيت سالكاً لم يحفظ جوارحه بحصون الأدب فاعلم بأنه غير سالك، لأن القلب إنما يتأدب عن علم أو شهود، وأدبه له يكون بقدر علمه أو شهوده، ومن لم يعلم حضور الرقيب، ولم يشهد معيته سبحانه وتعالى أطلق الجوارح غير هياب ولا وجل إذا اختفى عن الناس، وليس بسالك من خاف الناس ولم يخف الله تعالى، بل ليس بسالك من ظن أنه يخلو، ومن تحقق أنه يخلو فهو هالك لا سالك، وتحققه بالخلوة أن تقع منه المعاصى إذا خفى عن الناس، وكم من هالك يظن نفسه سالكاً، قال ﷺ: (إن الله حيى كريم يستحى أن يعذب المرء بين إخوانه). والسالكون فى الحقيقة المتحابون فى الله تعالى، المؤثرون إخوانهم فى الله تعالى على أنفسهم، والذين يتنافسون فى نيل القرب من الله تعالى، والتشبه برسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: (ينادى الله تعالى أين المتحابُّون لأجلى العاملون بطاعتى أظلهم يوم القيامة فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى). وقال ﷺ: (إن المتحابين يرفعهم الله فى أعلى قصر فى الجنة ويقول لهم: رضيتم، فيقولون: رضينا وأنت راض عنا)، وقال ﷺ: (لو أن عبدين متحابين أحدهما فى المشرق والآخر فى المغرب لجمعهما الله يوم القيامة ويقول تعالى: هذا الذى كنت تحبه فى الدنيا). وقال سيدنا داود عليه الصلاة والسلام فى مناجاته: (إلهى وجدت لكل داء دواء فهل للمحبين دواء؟ فأوحى الله إليه يا داود ليس للمحبين دواء إلا لقائى). من هنا ينتج أن المجانسة حكم لازم، وأن مقام كل إنسان بقدر من يحبه ومن يأنس به.

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه. فكل قرين بالمقارن يقتدى، والمرء مملوك لمن يحب فليتق الله، وليحب أهل التقوى والعرفان، الذين يعدهم الله فى الدنيا والآخرة أهل الصفا، وقد تعامل سلفنا الصالح فيما بينهم بالدين، حتى رقى الدين، فتعامل القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب، وتعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فقدت، وتعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب، والناس الآن يتعاملون بالرغبة والرهبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلو رغب المسلم فى

كافر ذل، وأخلص فى موالاته، ولو خاف من كافر تملق له، وإذا لم يرغب ولا يرهب من مؤمن أذله وأهانه.

أهل العـــزائم أنجم الآفـــاق
أنـــــوارهم مـن حـــضرة الخلاق

أهل العـــزائم جملـــوا بجمال من
وافي لـنــا بــالـصـــدق والأخلاق

نــور الــشريعــة فى ضيــاء حقيقــة
أحـــوال أهل الحب والعـــشـــاق

أهل العـــزائم حـــالهم نـبـويــة
ســـاروا بــسـير الحب والأشـــواق

أرواحهم ســاحت بملكــوت الــسما
أجـــســـامهم فى خـــدمـــة الخلاق

فى حـصن شرع المـصطفي بـشهــوده
قـــد شـــاهـــدت أنـــواره أحـــداقـــى

أهل العــزائم بــالـشريعـــة جملـــوا
علـم وحـــال سيرتي ورفـــاقـــى

الـــروح تـــشهـــد ربهـــا متـنـــزلاً
والجـــسم يعـبـــده بكل وفـــاق

* * *

أهل العـــزائم تـــابعـــوا المختـــار
أعـطـــاهمـــو الــرحمن منه فخـــارا

أهل العـــزائم بـــالقـــرآن تجملـــوا
قـــد شـــاهـــدوا الملكـــوت والأنـــوارا

صــــوم صلاة عفـــة وصيـــانـــة
أحـــواهم قـــد أشرقـت إسفـــارا

فى الليـل رهـبـــان مخـــافـــة ربهـم
قـــد شـــاهـــدوا وجه العلى جهـــارا

أعـمالهـم أعـمال طه المـــصـــطفـــى
أحـــواهـم تجلى لـنـــا أنـــوارا

أهل العـــزائم هـم أئـمـــة وقـتهـم
نـــالـــوا القبـــول وشـــاهـــدوا الـستـــارا

إن تلقهـم تلق ضيـــــاء محـمــــد
أمـــر بـمعـــروف فـــدع إنكـــارا

لم يـتركـــوا سـنـن الحـبـيـب لأنهـم
أعـطـــاهمـــو الـــرحمن منه منـــارا

فى كل عـصر شـمـــسهم قـــد أشرقـت
تحـيـــي القلــــوب وتمـنح الأسرارا

بـشرى لمن فـــازوا بـصحبـــة فـــردهم
أهل المعيـــة شـــاهـــدوا المختـــارا

أهل العـــزائم خمـــرهـم قـــرآنـــى
فقهـــوا القـــرآن بنـــوره الـــروحـــانـــى

شربـــوا المـــدامـــة من يـمين محـمـــد
غـــابـــوا عـن الآثـــار والأكـــوان

طـابـوا بكـشفهمـو وغـابـوا شـاهـدو ... وجهـاً علـيـاً فى انـمحـا أكـوانـى
فـترى شـبـابهـمـو رجـالاً جملـوا ... بـالحـب والأشـواق والعـرفـان
وتـرى شيـوخهـم أئمـة عـصرهـم ... علـماً وتـبـيـانـا وكل بـيـان
هـم أنجـم فى هـدى طه المـصـطفي ... نـص الحـديث بـصحـة البرهـان
أل العـزائـم منـهـمـو الأفـراد فى ... علـم الحقـيقـة والـشريعـة سيـان
راح المحـبـة هـيـمـتهـم أقـبلـوا ... بـالـعـقـل والأرواح والأركـان
إن تـشهـدهـم فى النهـار تـراهمـو ... أبـطـال ديـن الله فى الإمكـان
في لـيلهـم علـم وذكـر فى صفـا ... آل المحـبـة فى صفـا الإيـمان
فـكـأنهـم فى جمـعهـم رجـل لـه ... قلـب تـوجه وجهـة الـرحمـن

* * *

يـا إخـوتـى أهل الـبرلـس نلـتمـو ... سر الأئـمـة مـن قـديـم زمـان
أحببتمـو المختـار فـزتم بـالـرضـا ... حـتـي بلغـتـم حـظـوة المـنـان
يـا إخـوتـى الحب أعـظـم نعـمـة ... تعـطـى لأهل الـصفـو والإيقـان
أنـتـم رجـال العـصر فـضل محـمـد ... بـشرى لكـم فى مـولـد العـدنـان
قـد صرتمـو نـوراً لعـصر مـظلـم ... والله جملـكـم بـنـور حـنـان
شكـراً لـرب مـنعـم وهـب الـصفـا ... أعـطـى المحـبـة مـنه بـالإحـسـان

تم بحمد الله

الفهرس

الباب الأول

من هم الصوفية ٥

معنى كلمة الصوفية ٥

أئمة الصوفية ٥

تعدد مناهج الأخلاق عند الصوفية ٥

أولاً: الصوفى قدم دار البقاء على دار الفناء وباع ما يزول بما يدوم ٥

ثانياً: الصوفى من جاهد نفسه وانسلخ من مقتضيات نقائصه ٦

ثالثاً: الصوفى غريب بين أهله ٦

رابعاً: الصوفى اتحد بالحق مفارقا للخلق وهو فيهم ٦

مدارس الصوفية لا خلاف بينها فى كل زمان ومكان ٧

الصوفية هم أنصار الله ورسوله ﷺ فى كل زمان ومكان ٧

أهل الصُفة هم مصدر بث الروح العالية فى كل الحوادث ٨

الصوفية حملوا راية الإسلام إلى كل مكان بالمعرفة والسلوك ٩

الصوفية أيقظوا الشرق من غفلته لكى ينال حريته ٩

أولاً: الصوفية هم القائمون بواجب الوقت ٩

ثانياً: اتحاد الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ١٠

ثالثاً: واجب رجال التصوف ١١

الصوفية هم رجال الرحمة والقوة ١٢

أولاً: الصوفية نظروا إلى الدنيا بعين الاحتقار ١٢

ثانياً: الصوفية أشد الناس تأثراً بالحوادث ١٢

ثالثاً: الصوفية رجال الرحمة ١٣

رابعاً: واجب الصوفية ١٣

الصوفية هم صفوة الله الذين اجتابهم من الأزل ١٣

الباب الثانى

فى علوم الصوفية وأحوالهم ١٥
تعريف علم التصوف ١٥
الطريقة والشريعة ١٦
الشريعة والحقيقة ٢٠
السالك والسلوك ٢١
سيرة العالم الربانى ٢٢
طبيب الأرواح و علاماته ٢٥
أولاً: طبيب الأرواح ٢٥
ثانياً: علامات طبيب الأرواح ٢٥
تنبيه للسالكين من الاقتداء بالمضلين ٢٦
معانى صحبة المرشد ٢٦
أدب السالك ٢٨
أدب السالك مع المرشد ٢٨

الباب الثالث

من أسرار الصوفية فى العلم والإيمان ٣١
حاجة المجتمع إلى علم الآخرة وعلمائها ٣١
علم الدنيا وعلماؤها ٣١
الشيطان والإنسان ٣٣
محادثة العلم والعلماء ٣٥
الأمراء هم المفتون ٣٨
احتياج الأمراء إلى المفتين ٣٩
المفتون والقضاة فى الصدر الأول ٤٠
المفتى فوق أمير المؤمنين ٤١
شتان بين مفتى الهدى ومفتى الردى ٤١

الباب الرابع

طريق الصوفية فى المعرفة ٤٢
معرفة الله تعالى ٤٢
العارف ٤٤
وسائل المعرفة ٤٥
مراتب المعرفة ٤٦
مجاهدة العارفين ٤٦
الزهد والعابد والعارف ٤٧
درجات حركات همم العارفين ٤٨
ذكر العارفين ٥٠

الباب الخامس

فى الذكر وأنواعه وروابطه ٥١
أنواع الذكر ٥١
تحديد مقدار وميقات الأحكام الشرعية إلا الذكر ٥٢
الذكر الكثير ٥٢
الجواذب إلى الذكر ٥٣
آداب الذكر ٥٣
روابط الذكر ٥٤

الباب السادس

عبارات أئمة الصوفية فى التوحيد ٥٦
التوحيد هو تمييز الحادث من القديم ٥٦
التفريد والتوحيد ٥٧
أصول علم التوحيد ٥٧
التوحيد هو فناء صفات الآدمية ٥٨
الذات تعرف بالعلم ولا تدرك ٥٩
العجز عن الإدراك إدراك ٥٩

التوحيد يحجب الموحد عن جمال الوحدة ٦٠
التوحيد عند الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم قدس الله سره ٦٠

الباب السابع

عقيدة الصوفية فى الإيمان ٦١
تعريف الإيمان ٦١
عقيدة الصوفية ٦٢
عقيدة الشرعيين ٦٢
إثبات أن الإختلاف بين الفريقين لفظى محض ٦٢
إجماع المسلمين على الإيمان ٦٣
الفرق بين مذهب الجبر والاختياروالحشوية وبين مذهب التوحيد ٦٤
الإيمان عند الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ٦٤

الباب الثامن

مذهب الصوفية فى المحافظة على الحكمة ٦٦
لكل مقام مقال ٦٦
لا لوم على المقهور ٦٦
مفاتيح أبواب الردى ٦٧
مفاتيح أبواب الهدى ٦٨
الشريعة حصن السالكين ٦٩
الأعمال البدنية نتائج الأعمال القلبية ٧٠

الباب التاسع

مشاهد الصوفية فى حكمة تقدير المعاصى ٧٢
قدر المعاصى سبحانه ليجمل عباده المطلوبين بما يحبه منهم ٧٢
مشاهد أهل المعاصى ممن سبقت لهم الحسنة ٧٢
مشاهد أهل المعاصى ممن سبقت لهم السوءى ٧٣
مشهد الحكمة ٧٣
مشهد التوحيد ٧٦

الباب العاشر

وصايا للسالكين طريق رب العالمين ٧٧
أصل سعادات الإنسان ٧٧
احفظ دينك ٧٨
احفظ مالك ٧٨
احفظ عرضك ٧٩
احفظ الله يحفظك ٨٠
كن مع الله تر الله معك ٨١
أولاً: ما أجهل الإنسان ٨١
ثانياً: كيف تكون مع الله؟ ٨٢
ثالثاً: ما علامة معية الله سبحانه لى؟ ٨٣
أساس طريق آل العزائم ٨٤
إياكم وأهل الغواية ٨٤
الوصية ٨٥
حقيقة النسب ٨٦

الباب الحادى عشر

أسباب تنوع الأفكار عند الصوفية ٨٨
الإنسان خلق وسطاً ٨٨
أسباب تنوع الأفكار ٨٨
المختار من اختاره الله ٩٠
أولاً: مختار الله تعالى ٩٠
ثانياً:الخير الحقيقى ٩١
ثالثاً: الواجب على كل مسلم ٩١

الباب الثانى عشر

أصول الفضائل والخلق والتخلق ٩٣
أصول الفضائل ٩٣

الخلق والتخلق ٩٣
حسن الخلق سعادة فى الدنيا والآخرة ٩٥
الدنيا والآخرة ٩٧
النجاة من الدنيا بصحبة المرشد الكامل ٩٩
آداب صحبة المرشد الكامل ٩٩
الدنيا مطية الآخرة ١٠٠
حقيقة الدنيا والآخرة ١٠٣
أولاً: حقيقة الدنيا ١٠٣
ثانياً: حقيقة الآخرة ١٠٤
ثالثاً: هل كل الناس يعلمون حقيقة الآخرة؟ ١٠٤
رابعاً: هل الناس مؤهلون للدنيا والآخرة؟ ١٠٥
خامساً: من هم أشقياء الدنيا وسعداؤها؟ ١٠٥
الزهد وحقيقته ١٠٦
أولاً: الزهد ١٠٦
ثانياً: حقيقة الزهد ١٠٨

الباب الثالث عشر

الفرق بين أحوال الصوفية الهداة ومسالك المتصوفة الغلاة ١٠٩
مشروعية ترك الأسباب والعكوف فى الزوايا ١٠٩
السياحة للمريد والخروج من العوائد والمألوفات وترك الكلام جائز شرعاً ١٠٩
لبس الثياب الرثة مستنبط من سنن أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ ١٠٩
سند تحريم الخلوة بالنساء الأجانب ١١٠
موقف الدين من ترك الصلاة والصوم ١١٠
حكم الشرع فى الذين يمشون عراة ١١٢
تحذير للهداة من مسلك دعاة الجهالة الغلاة ١١٢
نصيحة لأهل الطريق ١١٣

الباب الرابع عشر

أصول آداب أهل الكمال من السادة الصوفية وآل العزائم من أهل المقامات العلية ١١٥

آداب المجتهدين من أهل العزائم ١١٥

آداب السائرين من أهل العزائم نوعان ١١٦

النوع الأول: التروك ١١٦

النوع الثانى: الأعمال ١١٦

آداب الواصلين من أهل العزائم نوعان ١١٦

الأدب الأول: كتم الأسرار ١١٧

الأدب الثانى: مشاهد الأنوار ١١٧

الأدب العام ١١٨

الأدب نوعان: أدب حسى وأدب معنوى ١١٨

الفهـــرس ١٢١

almashahed
www.almashahed.com